

# صدق الله العظيم وكذبت النبوءات

إعداد

الباحث في القرآن والسنة

وعضو الهيئة العامة للعلماء المسلمين بسورية

علي نايف الشجود

حقوق الطبع لكل مسلم

الطبعة الثانية

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه  
أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين  
أما بعد :

فإن موضوع هذه النبوءات التي يتعلق بها بعض الإخوة المتحمسين حول زوال  
أمريكا أو إسرائيل أو النظام الفرعوني في سورية ونحو ذلك اعتمادا على بعض  
الأرقام أو الكتب أو بداية الآيات القرآنية ونحو ذلك لا يجوز شرعا أن نعول  
عليها ، وقد سبقهم إلى ذلك كثيرون ومن أولهم محمد رشاد خليفة صاحب  
الإعجاز العددي في القرآن الكريم فضل وأضل ، وقد سمعت بالكثير منها منذ  
أكثر من بضع وعشرين سنة فلم تصدق واحدة منها، وكل ذلك لا أساس له  
من الصحة ، ومن ذلك صاحب كتاب هرمجدون وعمر أمة الإسلام وغير ذلك.  
ذلك لأنها لا تعتمد على أي أساسي علمي...

بل التصديق بما يؤدي إلى زيغ في العقيدة الإسلامية...  
ومن ثم فيجب علينا جميعا أن نقف صفاً واحداً في وجه هؤلاء الدجالين  
والمخرفين...

بل وينبغي على الدول التي يعيشون فيها مصادرة كتبهم ومعاقبتهم بأشد  
العقوبات ، حتى لا يفسدوا عقول الناس ، ويجعلوهم متعلقين بأوهام لا أساس  
لها من الصحة...

قال تعالى : { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ  
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) } [المائدة]

أسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والذال عليه في الدارين .  
الباحث في القرآن والسنة

وعضو الهيئة العامة للعلماء المسلمين بسورية

علي نايف الشحود

في ٢٧ رمضان ١٤٣٣ هـ الموافق ل ١٥/٨/٢٠١٢ م



الدليل على بطلان هذه النتائج ما يلي :

## ١- علم الحروف باطل شرعاً

ما يسمى بعلم الحروف قد استخدمته الفرق الباطنية لتخرج من الدين ولتنطعن به فلا يجوز التعويل عليه في تفسير كتاب الله تعالى.

## ٢- جمعي لجل أحاديث علامات الساعة..

لقد قمت بجمع جميع الأحاديث المقبولة والمتعلقة بعلامات الساعة الصغرى وقد فاقت ((٥٠٠)) حديث منذ أكثر من ثلاثين سنة وجمعت كذلك ما صح من علامات الساعة الكبرى<sup>١</sup> وبعدهما ما صح من أخبار المهدي<sup>٢</sup> ، وكذلك أحاديث الفتن<sup>٣</sup> ، وأحاديث الملاحم<sup>٣</sup>

وقد تبين لدي أن هذه العلامات يكتنفها أمران وهما الإيجاز والإبهام ، ومن ثم لا نستطيع الجزم بوقوع واحدة منهما إلا بعد وقوعها تماماً وانطباق النص عليها انطباقاً تاماً، فلا يجوز أن ننساق وراء العواطف والأحلام أو الدعايات المغرضة التي يروجها بعض أعداء الإسلام في كل مكان ؛ وذلك من أجل تخديرنا وإبعادنا عن حقيقة الصراع بين الحق والباطل.

## اشتباه الصحابة حول الدجال :

فمثلاً الدجال فقد كانوا يظنون أنه ابن صياد مع أنه من علامات الساعة الكبرى ففي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري، قال: خَرَجْنَا حُجَّاجًا، أَوْ عُمَّارًا، وَمَعَنَا ابْنُ صَائِدٍ، قَالَ: فَتَزَلُّنَا مَنْزِلًا، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَبَقِيَ أَنَا وَهُوَ، فَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ وَحَشَّةً شَدِيدَةً مِمَّا يُقَالُ عَلَيْهِ، قَالَ: وَجَاءَ بِمَتَاعِهِ فَوَضَعَهُ مَعَ مَتَاعِي، فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ، فَلَوْ وَضَعْتُهُ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَفَعَلْتُ، قَالَ: فَرَفَعْتُ لَنَا غَنَمًا، فَأَنْطَلَقَ فَجَاءَ بِعُسٍّ، فَقَالَ: اشْرَبْ، أَبَا سَعِيدٍ فَقُلْتُ إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ وَاللَّبَنُ حَارٌّ، مَا بِي إِلَّا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشْرَبَ

<sup>١</sup> - انظر كتابي " الخلاصة في أشراف الساعة الكبرى "

<sup>٢</sup> - انظر كتابي " المفصل في أحاديث الفتن "

<sup>٣</sup> - انظروا كتابي " المفصل في أحاديث الملاحم "

عَنْ يَدِهِ - أَوْ قَالَ أَخَذَ عَنْ يَدِهِ - فَقَالَ: أَبَا سَعِيدٍ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَخْذَ حَبْلًا فَأُعَلِّقَهُ بِشَجَرَةٍ، ثُمَّ أَخْتَنِقُ مِمَّا يَقُولُ لِي النَّاسُ، يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَسْتُ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ كَافِرٌ» وَأَنَا مُسْلِمٌ، أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ عَقِيمٌ لَا يُوَلِّدُ لَهُ»، وَقَدْ تَرَكْتُ وَلَدِي بِالْمَدِينَةِ؟ أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلَا مَكَّةَ» وَقَدْ أَقْبَلْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ؟ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: حَتَّى كَذَبْتُ أَنْ أَعْذِرَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ مَوْلَدَهُ وَأَيُّنَ هُوَ الْآنَ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: تَبَا لَكَ، سَائِرَ الْيَوْمِ"٤.

### ٣- أسباب هلاك الأمم :

لقد ذكر الله تعالى بنص القرآن الكريم سبب هلاك الأمم في آيات عديدة ومن ذلك :  
الظلم قال تعالى : { وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا } (٥٩) سورة الكهف

لَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ: عَادًا وَثَمُودَ وَقَوْمَ نُوحٍ وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَصْحَابَ الْأَيْكَةِ .  
وَدَمَّرَ قُرَاهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَعِنَادِهِمْ، وَجَعَلَ لِمَهْلِكِهِمْ وَقْتًا مُعَيَّنًا (مَوْعِدًا) ، لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، فَاحْذَرُوا، أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِنْ تَمَادَيْتُمْ فِي تَكْذِيبِ رَسُولِكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم. لولا أن الله قدر إهلاكهم إلى موعدهم، لحكمة اقتضتها إرادته فيهم، فلم يأخذهم أخذ القرى بل جعل لهم موعدا آخر لا يخلفونه: «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا. وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا» .. فلا

٤ - صحيح مسلم (٢٢٤٢ / ٤) ٩١ - (٢٩٢٧)

[ ش (بعض) هو القدح الكبير وجمعه عساس وأعساس (تبا لك سائر اليوم) أي خسرانا وهلاكنا لك باقي اليوم وهو منصوب بفعل مضمَر متروك الإظهار ]

٥ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢١٩٩، بترقيم الشاملة آليا)

يغرهم إمهال الله لهم، فإن مواعدهم بعد ذلك آت. وسنة الله لا تتخلف. والله لا يخلف الميعاد ..<sup>٦</sup>

**الفساد في الأرض،** قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) سورة الفجر

هؤلاء هم «الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ» .. وليس وراء الطغيان إلا الفساد. فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء. كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة. ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال .. إنه يجعل الطاغية أسير هواه، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد ويتخذ له مكانا في الأرض غير مكان العبد المستخلف وكذلك قال فرعون .. «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» عندما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتناول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد.

ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء، مع السخط الدفين والحق الكظيم، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية. والنفس التي تستذل تأسن وتتغن، وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة. وميدانا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك. وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع، وهو فساد أي فساد ..

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة، لأنها خطر على الطغاة والطغيان. فلا بد من تزييف للقيم، وتزوير في الموازين، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة، وتراها مقبولة مستساغة .. وهو فساد أي فساد.

<sup>٦</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٩٦٨)

فلما أكَثَرُوا فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ، كَانَ الْعِلَاجُ هُوَ تَطْهِيرُ وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْفَسَادِ: «فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» .. فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم. فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب، وهو تعبیر يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب. حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد. ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان.

ومن قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» تفيض طمأنينة خاصة. فربك هناك. راصد لا يفوته شيء. مراقب لا يند عنه شيء. فليطمئن بال المؤمن، ولينم ملء جفونه. فإن ربه هناك! .. بالمرصاد .. للطغيان والشر والفساد! وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله في أمر الدعوة، غير النموذج الذي تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود. وقد كان القرآن - ولا يزال - يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك. وفق الحالات والملابسات. ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء. لتطمئن على الحالين. وتتوقع الأمرين، وتكل كل شيء لقدر الله يجريه كما يشاء.

«إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ» .. يرى ويحسب ويحاسب ويجازي، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء ..<sup>٧</sup>

**والكفر والفسوق والعصيان** كما فعل بقوم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام

وغير ذلك من آيات كثيرة

قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمُ نُوحٍ أَوْ قَوْمُ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ} (٨٩) سورة هود

<sup>٧</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٨٥٢)

لا يحملنكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تلجوا في التكذيب والمخالفة، خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم. وهؤلاء قوم لوط قريب منكم في المكان. وقريب كذلك في الزمان. فمدين كانت بين الحجاز والشام.<sup>٨</sup>

وقال عن قوم لوط عليه السلام : { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ (٨٣) } [هود: ٨٢، ٨٣]

فَلَمَّا جَاءَ الْمَوْعِدُ، الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ لِنُزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ جَعَلَ عَالِيَ قَرْيِ لُوطٍ سَافِلَهَا، وَأَمْطَرَ عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مَشْوِيٍّ (مِنْ سِجِّيلٍ) ، مُصَفَّفَةٍ، بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، لَتَقَعَ عَلَيْهِمْ بِصُورَةٍ مُتَنَالِيَةٍ (مَنْضُودٍ) .

وَكَانَتْ هَذِهِ الْحِجَارَةُ تَحْمِلُ عَلَامَاتٍ (مُسَوَّمَةً) . وَمِثْلُ هَذِهِ الْحِجَارَةِ الَّتِي أَهْلَكَ اللَّهُ بِهَا قَوْمَ لُوطٍ مُعَدَّةٌ وَجَاهِزَةٌ، بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، لِإِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ الْفَجْرَةِ، وَهُمْ لَيْسُوا بِنَجْوَةٍ مِنْهَا.<sup>٩</sup>

وهي صورة للتدمير الكامل الذي يقلب كل شيء ويغير المعالم ويمحوها. وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شيء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان. بل أخط من الحيوان، فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان<sup>١٠</sup>...

٤ - قد وعدنا الله تعالى بإهلاك المجرمين والمفسدين والمنحرفين عن منهجه ووعدده الحق

قال تعالى : { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (٢٤) سورة يونس { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ

<sup>٨</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٢٥٦١)

<sup>٩</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٥٥٦، بترقيم الشاملة آليا)

<sup>١٠</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب-ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٢٥٥٤)



السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ { [يونس: ٢٤]

ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى مَثَلًا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي حِمَالِهَا وَبَهْجَتِهَا، ثُمَّ فِي سُرْعَةِ فَنَائِهَا، بِالنَّبَاتِ الَّذِي أَخْرَجَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَرْضِ بِمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَطَرِ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ مِنْ زُرُوعٍ وَثِمَارٍ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا وَأَصْنَافِهَا، وَمِمَّا تَأْكُلُ الْحَيَوَانَاتُ (الْأَنْعَامُ) حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زِينَتَهَا الْفَانِيَّةَ (زُخْرُفَهَا) وَازَّيَّنَتْ بِمَا خَرَجَ فِي رُبَاهَا مِنْ زُهورٍ نَضِرَةٍ مُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ، كَمَا تَتَرَيَنَّ الْعُرُوسُ لَيْلَةَ زَفَافِهَا، وَظَنَّ أَهْلُهَا، الَّذِينَ زَرَعُوهَا وَغَرَسُوهَا، أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَى حَزَازِهَا وَحَصَادِهَا، وَجَنِّي ثَمَارِهَا، وَالتَّمَتُّعِ بِهَا، فَبَيْنَمَا هُمْ يَأْمُلُونَ ذَلِكَ إِذْ جَاءَتْهَا صَاعِقَةٌ، أَوْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ فَأَيَّسَتْ أَوْرَاقَهَا، وَأَثْلَفَتْ ثَمَارَهَا، فَأَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ حِينًا قَبْلَ ذَلِكَ، وَهَكَذَا يُبَيِّنُ اللَّهُ الْحُجَجَ وَالْآيَاتِ، لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا الْمَثَلِ، فِي زَوَالِ الدُّنْيَا عَنْ أَهْلِهَا سَرِيعًا، مَعَ اغْتِرَارِهِمْ بِهَا.<sup>١١</sup> وقال تعالى : { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا } (١٦) سورة الإسراء

فِي قِرَاءَةِ (أَمَرْنَا) وَجَهَان:

(أَمَرْنَا بِالْتَّخْفِيفِ - وَهُوَ الْمَشْهُورُ فِي قِرَاءَتَيْهَا: فَمِنْ قَائِلٍ: إِنَّ الْمَعْنَى هُوَ أَنَّهُ إِذَا دَنَا تَعَلَّقَ إِرَادَتُنَا بِإِهْلَاكِ قَرْيَةٍ بِعَذَابِ الْاسْتِصْصَالِ لِمَا ظَهَرَ فِيهَا مِنَ الْمَعَاصِي، وَلَمَّا دَنَسَتْ بِهِ نَفْسَهَا مِنَ الْآثَامِ، لَمْ يُعَاجِلْهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْعُقُوبَةِ، بَلْ يَأْمُرُ مُتْرَفِيهَا بِالطَّاعَةِ فَإِذَا فَسَقُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَتَمَرَّدُوا، حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ لَارْتِكَابِهِمُ الْكِبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَدْمِيرِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ. (وَخَصَّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُتْرَفِينَ بِالذِّكْرِ لِمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنْ أَنَّ الْعَامَّةَ تُقَلِّدُهُمْ وَتَكُونُ تَبَعًا لَهُمْ، فِيمَا يَفْعَلُونَ) .

- وَمِنْ قَائِلٍ بَلْ إِنَّ الْمَعْنَى هُوَ: أَنَّ اللَّهَ يُسَخِّرُهُمْ لِفِعْلِ الْفَوَاحِشِ فَيَسْتَحِقُّونَ الْعُقُوبَةَ.

<sup>١١</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٨٩، بترقيم الشاملة آليا)

- وَأَمَرْنَا - بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ - وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِنَّ مَعْنَاهَا سَلَطْنَا شِرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ. وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا} .

- وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا: إِنَّ مَعْنَى (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) ، أَكْثَرْنَا عَدَدَهُمْ فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى انْتِشَارِ الْفِسْقِ وَالْفَسَادِ وَالْكَفْرِ، فَيُهْلِكُكُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ.<sup>١٢</sup>

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستهن بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها. ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فهلك وتطوى صفحاتها.

والآية تقرر سنة الله هذه. فإذا قدر الله لقريّة أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثرت فيها المترفون، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت، فحققت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك. وهي المسئولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي يسمح بوجود المترفين. فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحققت الهلاك، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك.

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسننا لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتتخذ إرادة الله وتحقق كلمته. والله لا يأمر بالفسق، لأن الله لا يأمر بالفحشاء. لكن وجود المترفين في ذاته، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقا.

<sup>١٢</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠٤٦، بترقيم الشاملة آليا)

وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة.

فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشئ السبب، ولكنها ترتب النتيجة على السبب. الأمر الذي لا مفر منه لأن السنة جرت به. والأمر ليس أمراً توجيهياً إلى الفسق، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق.

وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفر منها. وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحقق عليها القول فيدمرها تدميراً.

هذه السنة قد مضت في الأولين من بعد نوح، قرناً بعد قرن، كلما فشلت الذنوب في أمة انتهت بها إلى ذلك المصير، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبيراً بَصِيراً».<sup>١٣</sup>

وقال تعالى: { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } (سورة الأنعام ٤٤)

إن الرخاء ابتلاء آخر كابتناء الشدة. وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة. يبتلي الطائعين والعصاة سواء. بهذه وبذاك سواء .. والمؤمن يبتلي بالشدة فيصير، ويبتلي بالرخاء فيشكر. ويكون أمره كله خيراً .. وفي الحديث عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (رواه مسلم).<sup>١٤</sup>

فأما هذه الأمم التي كذبت بالرسول، والتي يقص الله من أنبيائها هنا. فإنهم لما نسوا ما ذكروا به، وعلم الله - سبحانه - أنهم مهلكون، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا .. فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء ..

والتعبير القرآني: «فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ» .. يصور الأرزاق والخيرات، والمتاع، والسلطان ..

<sup>١٣</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٨٩٤)

<sup>١٤</sup> - صحيح مسلم (٤/٢٢٩٥) - ٦٤ (٢٩٩٩)

متدفقة كالسيول بلا حواجز ولا قيود! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة! إنه مشهد عجيب يرسم حالة في حركة على طريقة التصوير القرآني العجيب.

«حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا» .. وغمرهم الخيرات والأرزاق المتدفقة واستغرقوا في المتاع بما والفرح لها - بلا شكر ولا ذكر - وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه وانحصرت اهتمامهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع. وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق وجر هذا وذلك إلى نتائج الطبيعة من فساد الحياة كلها .. عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل: «أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً، فِإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ» .. فكان أخذهم على غرة وهم في سهوة وسكرة. فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة عاجزون عن التفكير في أي اتجاه. وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم.

«فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا» .. ودابر القوم هو آخر واحد منهم يديرهم أي يجيء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى! .. و «الذين ظلموا» تعني هنا الذين أشركوا .. كما هو التعبير القرآني في أغلب المواضع عن الشرك بالظلم وعن المشركين بالظالمين .. «وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ..

بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين .. وهل يحمد الله على نعمة، أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين، أو على رحمة أجل من رحمته لعباده بهذا التطهير؟<sup>١٥</sup>

لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها، ذلك السر المغيب من قدر الله وهذا القدر الظاهر من سنته وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف.

ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة وكان لها من التمكين في الأرض وكان لها من الرخاء والمتاع ما لا يقل - إن لم يزد في بعض نواحيه - عما تتمتع به اليوم أمم مستغرقة في

السلطان والرخاء والمتاع مخدوعة بما هي فيه خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء ..

هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة، ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة. والذين يدورون في فلكها يبهرهم الألاء الخاطف، ويتعاضمهم الرخاء والسلطان، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم، وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه، وهي تتمرد على سلطانها، وهي تدعي لأنفسها خصائص ألوهيته، وهي تعيث في الأرض فسادا، وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله ..

ولقد كنت - في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية - أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه: «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ» .. فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية .. مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب! .. لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك! وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه، وشعورهم بأنه وقف على «الرجل الأبيض» وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مرذولة، وفي وحشية كذلك بشعة! وفي صلف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذي شهر به اليهود في الأرض كلها حتى صار علما على الصلف العنصري. بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين ..

كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية، وأتوقع سنة الله، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين: «حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» ..

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله - ﷺ - فهناك ألوان من العذاب باقية. والبشرية - وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء - تذوق منها الكثير. على الرغم من هذا النتاج الوفير، ومن هذا الرزق الغزير! إن العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخلقي .. الذي تقاسي منه هذه

الأمم اليوم، ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء !

ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمة، في مقابل شهوة أو شذوذ .. وهي طلائع لا تخطيء على نهاية المطاف!

وليس هذا كله إلا بداية الطريق .. عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ - قَالَ: إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعْصِيَةٍ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ } ..<sup>١٦</sup>

غير أنه ينبغي، مع ذلك، التنبيه إلى أن سنة الله في تدمير (الباطل) أن يقوم في الأرض (حق) يتمثل في (أمة) .. ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .. فلا يقعدن أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كد. فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق، ولا يكونون أهله .. وهم كسالى قاعدون .. والحق لا يتمثل إلا في أمة تقوم لتقر حاكمية الله في الأرض، وتدفع المغتصبين لها من الذين يدعون خصائص الألوهية .. هذا هو الحق الأول، والحق الأصيل .. «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» ..<sup>١٧</sup>

وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود والنصارى، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبئس المهادهم، وبئس الجزاء جزاؤهم.<sup>١٨</sup>

<sup>١٦</sup> - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٨٩٠ / ٥) (١٧٣١١) ١٧٤٤٤ - حسن لغيره

<sup>١٧</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ١٥١٦)

<sup>١٨</sup> - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٢٣)

إن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله، قائم في كل لحظة. ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة - ولو قل عددها - قائم كذلك في كل لحظة. وتوقف النصر على تأييد الله الذي يعطيه من يشاء حقيقة قائمة لم تنسخ، وسنة ماضية لم تتوقف.

وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة وتثق في ذلك الوعد وتأخذ للأمر عدته التي في طوقها كاملة وتصبر حتى يأذن الله ولا تستعجل ولا تقنط إذا طال عليها الأمد المغيب في علم الله، المدبر بحكمته، المؤجل لموعده الذي يحقق هذه الحكمة. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ» .. ولا بد من بصر ينظر وبصيرة تتدبر، لتبرز العبرة، وتعيها القلوب. وإلا فالعبرة تمر في كل لحظة في الليل والنهار!<sup>١٩</sup>

وقال تعالى: {لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} (١٩٧) سورة آل عمران

وتقلب الذين كفروا في البلاد، مظهر من مظاهر النعمة والوجدان، ومن مظاهر المكانة والسلطان، وهو مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة. يحيك منه شيء في قلوب المؤمنين وهم يعانون الشظف والحرمان، ويعانون الأذى والجهد، ويعانون المطاردة أو الجهاد .. وكلها مشقات وأهوال، بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون! .. ويحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة، وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء، والباطل وأهله في منجاة، بل في مسلاة! ويحيك منه شيء في قلوب الضالين المبطلين أنفسهم فيزيدهم ضلالا وبطرا ولجاجا في الشر والفساد.

هنا تأتي هذه اللمسة: «لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ. ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ». متاع قليل .. ينتهي ويذهب .. أما المأوى الدائم الخالد، فهو جهنم .. وبئس المهاد!

<sup>١٩</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٦٣٦)

وفي مقابل المتاع القليل الذاهب جنات. وخلود. وتكريم من الله: «جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» .. «خَالِدِينَ فِيهَا» .. «نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» .. «وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ» ..

وما يشك أحد يضع ذلك النصيب في كفة، وهذا النصيب في كفة، أن ما عند الله خير للأبرار. وما تبقى في القلب شبهة في أن كفة الذين اتقوا أرجح من كفة الذين كفروا في هذا الميزان. وما يتردد ذو عقل في اختيار النصيب الذي يختاره لأنفسهم أولو الأبواب! إن الله - سبحانه - في موضع التربية، وفي مجال إقرار القيم الأساسية في التصور الإسلامي لا يعد المؤمنين هنا بالنصر، ولا يعدهم بقهر الأعداء، ولا يعدهم بالتمكين في الأرض، ولا يعدهم شيئاً من الأشياء في هذه الحياة .. مما يعدهم به في مواضع أخرى، ومما يكتبه على نفسه لأوليائه في صراعهم مع أعدائه.

إنه يعدهم هنا شيئاً واحداً. هو «ما عِنْدَ اللَّهِ». فهذا هو الأصل في هذه الدعوة. وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة: التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية، ومن كل مطمع - حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر أعداء الله - حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منها المؤمنون، ويكلوا أمرها إليه، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها! هذه العقيدة: عطاء ووفاء وأداء .. فقط. وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض، وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء .. ثم انتظار كل شيء هناك! ثم يقع النصر، ويقع التمكين، ويقع الاستعلاء .. ولكن هذا ليس داخلاً في البيعة. ليس جزءاً من الصفقة.

ليس في الصفقة مقابل في هذه الدنيا. وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء .. والابتلاء ..

على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة وعلى هذا كان البيع والشراء. ولم يمنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء ولم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية، إلا حين تجردوا هذا التجرد، ووفوا هذا الوفاء



عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ - الْعَقَبَةُ ، فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - : " يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عُمُومًا " فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اشْتَرِطُ لِرَبِّكَ وَاشْتَرِطُ لِنَفْسِكَ وَاشْتَرِطُ لِأَصْحَابِكَ ، فَقَالَ - ﷺ - : " أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ، وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ " ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً لَمْ يَخْطُبِ الْمُرْدُ وَلَا الشَّيْبُ خُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ: فَمَا لَنَا قَالَ: " الْجَنَّةُ " قَالَ: ابْسُطْ يَدَكَ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعَكَ. ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: فَقَالَ يَعْنِي أبا أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رُويَ دَا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - ، وَإِنْ إِيْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعْصِيَكُمْ السُّيُوفُ ، فِيمَا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصِيرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللَّهِ ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَغْدَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، فَقَالُوا يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنْكَ يَدَكَ فَوَاللَّهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقْبِلُهَا، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرِّطِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ. ٢٠

هكذا .. «الجنة» .. والجنة فقط! لم يقل: النصر والعز والوحدة. والقوة. والتمكين. والقيادة. والمال.

والرخاء - مما منحهم الله وأجراه على أيديهم - فذلك كله خارج عن الصفقة! وهكذا .. ربح البيع ولا نقييل ولا نستقيل .. لقد أخذوها صفقة بين متبايعين أنهى أمرها، وأمضى عقدها.

ولم تعد هناك مساومة حولها! وهكذا ربي الله الجماعة التي قدر أن يضع في يدها مقاليد الأرض، وزمام القيادة، وسلمها الأمانة الكبرى بعد أن تجردت من كل أطماعها، وكل رغباتها، وكل شهواتها، حتى ما يختص منها بالدعوة التي تحملها، والمنهج الذي تحققه،

٢٠ - أخبار مكة للفاكهي - (٤/ ٢٣٢) (٢٥٤٠) صحيح لغيره

والعقيدة التي تموت من أجلها. فما يصلح لحمل هذه الأمانة الكبرى من بقي له أرب لنفسه في نفسه، أو بقيت فيه بقية لم تدخل في السلم كافة.<sup>٢١</sup>

### ٥- وعد الله تعالى ﷺ بالنصر المؤزر على عدوهم ووعد الحق

قال تعالى : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } (٥٥) سورة النور

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ بِأَنَّهُ سَيَجْعَلُ مِنْ أُمَّتِهِ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ، وَأُئِمَّةً لِلنَّاسِ، وَأَنَّهُ سَيُبَدِّلُهُمْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ مِنَ النَّاسِ أَمْنًا وَحُكْمًا فِيهِمْ. عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ بِمَكَّةَ نَحْوًا مِنْ عَشْرِ سِنِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سِرًّا وَهُمْ خَائِفُونَ لَا يُؤْمَرُونَ بِالْقِتَالِ حَتَّى أُمِرُوا بَعْدَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ بِالْقِتَالِ وَكَانُوا بِهَا خَائِفِينَ يُمَسُّونَ فِي السَّلَاحِ، وَيَصْبَحُونَ فِي السَّلَاحِ، فغَيَّرُوا بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَبَدَ الدَّهْرَ نَحْنُ خَائِفُونَ هَكَذَا مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمَ نَأْمُنُ فِيهِ وَنَضَعُ فِيهِ السَّلَاحَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَنْ تَعْبُرُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي الْمَلَأِ الْعَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَتْ فِيهِ حَدِيدَةٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا. إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. فَأَظْهَرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ نَبِيَّهِ عَلَى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فَأَمَّنُوا وَوَضَعُوا السَّلَاحَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ قَبَضَ نَبِيَّهِ ﷺ فَكَانُوا كَذَلِكَ أَمْنِينَ فِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ حَتَّى وَقَعُوا فِيهَا وَقَعُوا وَكَفَرُوا بِالنَّعْمَةِ فَأَذْهَلَ

<sup>٢١</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٨٦٧)

اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ الَّذِي كَانَ رَفَعَ عَنْهُمْ، وَاتَّخَذُوا الْحِجْرَ وَالشُّرْطَ وَغَيَّرُوا فَعْيَرَ مَا بِهِمْ.<sup>٢٢</sup>

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّهُ سَيَسْتَخْلِفُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَرْضِ، كَمَا اسْتَخْلَفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَسَيَكُونُ لَهُمُ الْأَمْرُ. وَحَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَمَنْ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِ، وَجَحَدَ نِعْمَهُ عَلَيْهِ، فَقَدْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ وَكَفَى بِذَلِكَ ذَنْبًا عَظِيمًا.<sup>٢٣</sup>

وَقَالَ تَعَالَى : { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ } (٦٠) سورة الروم

بهذه الآية تختم السورة الكريمة، وهي تحمل إلى النبي الكريم دعوة من الله سبحانه وتعالى إلى الصبر على ما يلقي من قومه من مكاره، مستعينا على الصبر، واحتمال المكروه، بما وعده ربه من نصر لدين الله الذي يدعو إليه، ومن تمكن له وللمؤمنين معه في هذه الدنيا، ومغفرة من الله ورضوان في الآخرة، هذا، إلى ما يلقي هؤلاء المشركون الضالون من خزي وخذلان في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة.

وفي قوله تعالى: «وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ» - إشارة لافتة إلى ما قد يرد على النبي - صلوات الله وسلامه عليه - من تلك الخواطر التي تساور بعض النفوس، من المؤمنين الذين اشتدت عليهم وطأة البلاء، وطال بهم الانتظار لملاقاة ما وعدهم الله من نصر، ففي ساعات الضيق والعسرة، قد يتسرب إلى بعض المؤمنين شيء من القلق، وربما شيء من الشك والريب، ذلك أن للنفس البشرية حدا من الاحتمال والصبر على المكاره، إذا بلغت زايلتها القدرة على الاحتمال، وآذنها الصبر بالرحيل، وعندئذ تنحل العزيمة، ويضعف اليقين، وتبرد حرارة الإيمان، وفي هذا يقول الله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبُاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟» (٢١٤: البقرة) .. فهذه حال

<sup>٢٢</sup> - تفسير ابن أبي حاتم - محققا (٢٦٢٩/٨) (١٤٧٧٢) حسن مرسل

<sup>٢٣</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٧٢٨، بترقيم الشاملة آليا)

تعرض المؤمنين، ولن يعصهم منها إلا التحصن بالإيمان، واللياذ باليقين الذي يدفع كل شك في قدرة الله، وفي تحقيق ما وعد المؤمنين به، من نصر، وعافية مما هم فيه من بلاء. فقله تعالى: «وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ» دعوة للمؤمنين أن يوثقوا إيمانهم بالله، وأن يمتحنوا هذا الإيمان على محك الشدائد والحن، فعلى هذا المحك يظهر معدن الإيمان، وتعرف حقيقته..

والاستخفاف: أصله من الخفة، والمراد به التحول من حال إلى حال، والانتقال من وضع إلى وضع، عند كل خاطرة، ولأية مسة.. فإن الخفيف من الشيء، هدف سهل لكل عارض يعرض له، ويريد زحزحته عن موضعه الذي هو عليه..

والآية، إذ تدعو المؤمنين إلى أن يكونوا من الموقنين بالله، والمستيقنين بنصره، فإنها تدعو النبي إلى أن يثبت في موقفه من الإيمان بربه، والثقة فيما وعده به، حتى ترتد عنه العوارض التي تعرض له داخل نفسه أو خارجها، حين تجده جبلا راسخا، لا تصادف أية خفة في أي جانب منه.. وقد كان صلوات الله وسلامه عليه على هذا اليقين الذي تزول الجبال ولا يزول.. قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ عُثْبَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ الْأَخْنَسِ أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ قُرَيْشًا حِينَ قَالُوا لِأَبِي طَالِبٍ هَذِهِ الْمَقَالَةُ بَعَثَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ لَهُ يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاءُونِي، فَقَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا، لِلَّذِي كَانُوا قَالُوا لَهُ فَأَبْقِ عَلَيَّ وَعَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تُحْمَلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ فَظَنَّ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ لِعَمِّهِ فِيهِ أَنَّهُ خَاذِلُهُ وَمُسْلِمُهُ وَأَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِهِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - "يَا عَمَّ وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ" قَالَ ثُمَّ اسْتَعْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَبَكَى ثُمَّ قَامَ فَلَمَّا وَلَّى نَادَاهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ أَقْبِلْ يَا ابْنَ أَخِي، قَالَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَقَالَ أَذْهَبَ يَا ابْنَ أَخِي، فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أُسَلِّمُكَ لَشَيْءٍ أَبَدًا.<sup>٢٤</sup>

<sup>٢٤</sup> - التفسير القرآني للقرآن (١١ / ٥٤٩) والحديث في الروض الأنف ت السلامي (٣ / ١٠) حسن مرسل

وقال تعالى : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } (٢١٤) سورة البقرة

يُخَاطَبُ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ هَدَاهُمْ إِلَى السَّلَامِ، وَإِلَى الْخُرُوجِ مِنْ ظُلْمَةِ الْاِخْتِلَافِ، إِلَى نُورِ الْوِفَاقِ، بِاتِّبَاعِهِمْ هُدَى الْكِتَابِ زَمَنَ التَّنْزِيلِ، الَّذِينَ يَطُفُّونَ مِنْهُمْ أَنْ انْتَسَابَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فِيهِ الْكَفَايَةُ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ دُونَ أَنْ يَتَحَمَّلُوا الشَّدَائِدَ وَالْأَذَى فِي سَبِيلِ الْحَقِّ، وَهَدَايَةَ الْخَلْقِ، جَهْلًا مِنْهُمْ بِسُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَهْلِ الْهُدَى مُنْذُ أَنْ خَلَقَهُمْ. فَيَقُولُ لَهُمْ: هَلْ تَحْسِبُونَ أَنَّكُمْ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَنْ تُبْتَلَوْا وَتُخْتَبَرُوا كَمَا فَعَلَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ ابْتَلَوْا بِالْفَقْرِ (الْبَأْسَاءُ)، وَبِالْأَسْقَامِ وَالْأَمْرَاضِ (الضَّرَاءُ)، وَخَوْفُوا وَهَدَدُوا مِنَ الْأَعْدَاءِ (زُلْزِلُوا)، وَامْتَحِنُوا امْتِحَانًا عَظِيمًا، وَاشْتَدَّتْ الْأُمُورُ بِهِمْ حَتَّى تَسْأَلَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ قَائِلِينَ: مَتَى يَأْتِي نَصْرُ اللَّهِ.

وَحِينَمَا تَنْتَبِهُ الْقُلُوبُ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْمِحْنِ الْمَزْلُزَةِ، حِينَئِذٍ تَتِمُّ كَلِمَةُ اللَّهِ، وَيَجِيءُ نَصْرُهُ الَّذِي يَذْخِرُهُ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ يَسْتَيْقِنُونَ أَنْ لَا نَصْرَ إِلَّا نَصْرُ اللَّهِ.<sup>٢٥</sup>

وقال تعالى : { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } (٣٣) سورة التوبة

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِكِتَابٍ هُوَ الْقُرْآنُ، كَفَلَ حِفْظَهُ حَتَّى آخِرِ الزَّمَانِ، فِيهِ الْهُدَى وَدِينُ الْحَقِّ، وَسَيُظْهِرُهُ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ، لِأَنَّهُ هُوَ الدِّينُ الصَّحِيحُ الَّذِي جَاءَ بِالِدَّعْوَةِ الصَّحِيحَةِ (الَّتِي جَاءَتْ بِهَا جَمِيعُ الْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ) وَهِيَ دَعْوَةُ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَبَدَّلَ النَّاسُ، وَحَرَّفُوا فِيهَا، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ لِتَصْحِيحِ ذَلِكَ، وَلِيُعِيدَ لِدَّعْوَةِ التَّوْحِيدِ صَفَاءَهَا وَأَصَالَتَهَا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.<sup>٢٦</sup>

إن «الدين» هو «الدينونة» .. فيدخل فيه كل منهج وكل مذهب وكل نظام يدين الناس له بالطاعة والاتباع والولاء ..

<sup>٢٥</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٢١، بترقيم الشاملة آليا)

<sup>٢٦</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٦٩، بترقيم الشاملة آليا)

والله سبحانه يعلن قضاءه بظهور دين الحق الذي أرسل به رسوله على «الدين» كله بهذا المدلول الشامل العام! إن الدينونة ستكون لله وحده. والظهور سيكون للمنهج الذي تتمثل فيه الدينونة لله وحده.

ولقد تحقق هذا مرة على يد رسول الله - ﷺ - وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان. وكان دين الحق أظهر وأغلب وكانت الأديان التي لا تخلص فيها الدينونة لله تخاف وترجف! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه خطوة فخطوة بفعل عوامل داخلية في تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب الطويلة المدى، المنوعة الأساليب، التي أعلنها عليه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء ..

ولكن هذه ليست نهاية المطاف .. إن وعد الله قائم، ينتظر العصبة المسلمة، التي تحمل الراية وتمضي، مبتدئة من نقطة البدء، التي بدأت منها خطوات رسول الله - ﷺ - وهو يحمل دين الحق ويتحرك بنور الله ..<sup>٢٧</sup>

وشهادة الله لهذا الدين بأنه «بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ» هي الشهادة. وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة. ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله. ظهر في ذاته كدين، فما ثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته. فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال. وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمتها، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها، فهو هي، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان.

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهت ومزقت وزيد عليها ما ليس منها، ونقصت من أطرافها، وانتهت لحال لا تصلح معه لشيء من قيادة الحياة. وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبدا، لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود.

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته. فأما من ناحية واقع الحياة، فقد صدق وعد الله مرة، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان. ثم زحف زحفا سلميا بعد

<sup>٢٧</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٥٣)

ذلك إلى قلب آسيا وإفريقية، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى .. وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة - منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على يدي «البطل» الذي صنعوه! - وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي «أبطال» آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء.

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها، ظاهراً بإذن الله على الدين كله تحقيقاً لوعده الله، الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل!

ولقد كانت تلك الآيات حافزاً للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى. وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أَرَادَهُ ليظهر، وإن هم إلا أداة. وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين الواثقين بوعده ربهم، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة. بإذن الله.<sup>٢٨</sup>

إن هذه حقيقة نؤمن بها إيماننا بالله، وبدين الله، وبكتاب الله.. وإن هذه الرّميات العمياء التي يرمى بها الإسلام لن تنال منه، ولن تقف في طريق أنواره أن تملأ الآفاق، وأن تبسط على الأرض سلطاتها، لأنها نور من نور الله: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» .

ونعود إلى قضية السيف التي يدّعيها المدّعون على الإسلام، وأنه قام عليه، وفتح طريقه إلى القلوب به - فنقول:

إنه لو كان أمر الإسلام أمر قوة، لما كان في الحياة اليوم إنسان يدين بالإسلام، ولما كانت دعوة الإسلام أكثر من حدث من أحداث التاريخ، عاش في الحياة زمننا، ثم طواه الزمن فيما طوى من وقائع وأحداث.

<sup>٢٨</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٤٦)

فهل هذا هو واقع الإسلام؟ وهل هذا هو شأنه في وقائع الحياة وأحداثها؟  
إن الأمر لعلّ عكس هذا تماما..

وإن شهادة الواقع لا تحتاج إلى بيان.. فهي ناطقة بأفصح لسان، بأن دولة الإسلام تزداد على الأيام امتدادا واتساعا، وأن زحفه السلميّ المكتسح لم يتوقف لحظة واحدة، حتى في أقسى الظروف وأحلكها، التي مرّت بالإسلام وألقت بكل ثقلها عليه..  
لقد قطع الإسلام من حياته المباركة أربعة عشر قرنا.. وأنه إذا سلّمنا بالقول بأن الإسلام قام على السيف والقوة، في أول حياته، فإنه محال أن يسلم بالقول بأن ذلك السيف وتلك القوة قد صحبا الإسلام، وكانا مستندا له على امتداد هذا الزمن كلّ..

فما عرف الناس في الحياة قوة تظل حارسة ساهرة لمبدأ من المبادئ أو نزعة من النزعات، أكثر من سنوات معدودات.. لجيل أو جيلين.. أما أن تظل هذه القوّة قرونا متطاولة من الزمن، قائمة على حراسة مذهب من المذاهب، أو نزعة من النزعات، فذلك ما لم يكن ولن يكون أبدا.. فإن القوة إنما تخدم غرضا ذاتيا يعيش في كيان إنسان من الناس، أو جماعة من الجماعات، ولن تتجاوز حياتها بحال حياة هذا الإنسان أو تلك الجماعة.. ثم يموت المبدأ أو المترع، يموت القوة التي أقامته، وحرسته! ونفترض جدلا أن تقوم قوة ما لخدمة غاية من الغايات أجيالا متعاقبة، ونفترض جدلا كذلك، أن هذه الأجيال قد تواصلت فيما بينها على اتخاذ هذه القوة حارسة على هذه الغاية التي تنشدها وتعيش فيها..

فهل حدث هذا في المجتمع الإسلامي؟ وهل كانت القوة دائما إلى جانب الإسلام، تحرسه، وتدافع عنه؟

التاريخ يشهد شهادة لا شك فيها- وواقع المسلمين اليوم ينطق بها- بأن دولة المسلمين التي قامت في صدر الإسلام، والتي كان لها ما كان من قوة وسطوة- هذه الدولة، قد تفككت وانحلت بعد ثلاثة قرون، وعراها الوهن والضعف، وأصبحت دولة الإسلام إمارات ودويلات متنازعة متخاصمة، وخضع كل صقع من أصقاع هذه الدولة، لقوى غاشمة طاغية، تضرر للمسلمين كل عداوة، وترصد للإسلام كل شر..



لقد وقع الإسلام والمسلمون في وجه عواصف عاتية جائحة، للغزو البربري، الذي كان من شأنه أن يدمر كل شيء، ويأتي على كل شيء، لولا قوة هذا الدين، وما غرس في أتباعه من معالم الحق والخير.. وحسبك أن تذكر هنا الغزو التتري، أو الغزو المغولي.. فما مرّ أحدهما بمواطن من المواطن إلا أحاله خرابا يابا.. ثم حسبك أن تذكر الحروب الصليبية، ثم الاستعمار الغربي الذي تسلط على قارتى أفريقيا وآسيا، حتى لقد كانت مواطن الإسلام كلها تحت يده.. فما حلّ الاستعمار بأرض إلا أجذبت من كل خير، وأصبحت مرعى خصبا لآفات الجهل والفقر والضعف.. ومع هذا كله، ومع ما أصاب المسلمين من بلاء، فقد بقي الإسلام في قلوب أهله متمكنا قويًا، لا يتحولون عنه أبداً، ولو أخذوا بكل ألوان الضر والأذى، في أمواهم وأنفسهم، أو جىء إليهم بكل مغريات الحياة من مال ونساء على يد المستعمرين والمبشرين..

فتاريخ الاستعمار للدول الإسلامية، يؤلف كتابا ضخما، أسود الصفحات، لما كان يأخذ به المستعمرون الأمم الإسلامية بصفة خاصة، والعربية بصفة أخص، من بغى وعدوان، وتسلط قاهر، على مقومات الحياة في تلك الأمم، وخاصة ما يتصل بالعقيدة الدينية، وما تلقاه عنها أهلها من لغة وعادات وتقاليد، وذلك ليضعفوا الصّلات التي تصل المسلمين بدينهم، وليوهنوا من الأسباب التي تربط بين جماعاتهم.. ومع هذا كله فقد بقي الإسلام متمكنا في القلوب، راسخا في الضمائر، مختلطا بالمشاعر، لم يسلم للمسلمين شيء غيره، مما كان لهم في هذه الدنيا، التي سلبهم الاستعمار إياها، أو قتلها، حيث لم يكن له حاجة فيها.. وكان الإسلام دائما هو القوة التي يستند إليها المسلمون، كلّما خذلتهم قوى الحياة جميعا، من علم، ومال، ورجال..

وتاريخ التبشير في المحيط الإسلامي يحدث عن أكبر هزيمة، وأعظم خيبة منى بما عمل من الأعمال، أو أصيب بها حركة من الحركات، أو انتهت إليها دعوة من الدّعوات.

فما استطاعت تلك الحملات التبشيرية التي رصدت لها دول أوروبا وأمريكا الأموال الضخمة، وجنّدت لها العقول الجبارة- ما استطاعت هذه الحملات أن تنال من الإسلام منالا، أو أن تحوّل مسلما واحدا عن دينه، أو تفتنه فيه، بل كان المسلم الأميّ الساذج،

يفحم بفطرته السليمة، وبعقيدته السمحة الواضحة كل منطق، ويخرس كل ذى لسان، حتى يرفع بصره إلى السماء قائلاً:  
«لا إله إلا الله» .!

فإذا ادّعت حملة من حملات التبشير أنها استطاعت بحولها وحيلتها أن تخرج مسلماً عن إسلامه، فقد كذبت وافترت، لتخدع أولئك الذين يمدونها بالمال، كي يدوم لها هذا المدد. فإنها- وقد فاتها الكسب الديني- حريصة على ألا يفوقها الكسب المادى من هذا المال الذي يتدفق إليها في سحاء من كل جهة، وإنه لمال كثير، أثرى به عدد وفير من أدياء الدين، الذين يتخذون التبشير تجارة لهم، ودعاية للاستعمار، وتمكيناً للمستعمرين..

نريد من هذا أن نقول: إن الإسلام بقوته الذاتية، هو الذي حمى المسلمين في ساعات العسرة، وأمسك بهم على ضربات الزمن القاتلة، وأمدهم بأمداد لا تنفذ من القوى الروحية، التي لم تنل منها يد التسلط والبغي، ولم تنفذ إليها ضربات المتسلطين والباغين.. وإنه لولا الإسلام لما بقي لمواطن المسلمين معلم من معالم الحياة، يعرفون به مكانهم في هذا التيه الذي رماهم الزمن به.

فالمسلمون ليسوا هم الذين وسعوا رقعة الإسلام، ومكنوا له في الأرض، ودفعوا به إلى كل أفق من آفاقها، بل الإسلام نفسه هو الذي جعل للمسلمين دولة.. والإسلام نفسه هو الذي غذى هذه الدولة بأسباب الحياة والنماء..

والإسلام نفسه هو الذي كان الدرع الواقية والحصن الحصين لأهله، يلوذون به، ويستظلون بجناحه، كلما لفحهم هجير الحياة، وتعاوت حولهم الذئاب..<sup>٢٩</sup>  
وغير ذلك من آيات قرآنية

### بعض الأحاديث النبوية حول انتصار المسلمين على أعدائهم

وقد ذكر الرسول ﷺ أحاديث كثيرة بين فيها أن المسلمين سينتصرون على الفرس والروم وأن هذا الدين سينتشر في سائر الأرض بعز عزيز وبذل ذليل ففي مسند أحمد

<sup>٢٩</sup> - التفسير القرآني للقرآن (٥ / ٦٥٨)

عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : لَيُبْلَغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ ، بَعِزَّ عَزِيزٍ ، أَوْ بَذَلْ ذَلِيلٍ ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ . وَكَانَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ ، يَقُولُ : قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّعَارُ وَالْجَزِيَّةُ.<sup>٣٠</sup>

وَعَنْ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَارِسُ نَطْحَةَ ، أَوْ نَطْحَتَانِ ، ثُمَّ لَا فَارِسَ بَعْدَهَا أَبَدًا وَالرُّومُ ذَاتُ الْقُرُونِ أَصْحَابُ بَحْرٍ وَصَخْرٍ كُلَّمَا ذَهَبَ قَرْنٌ خَلَفَهُ قَرْنٌ مَكَانَهُ ، هَيَّاتَ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ ، هُمْ أَصْحَابُكُمْ مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ خَيْرًا.<sup>٣١</sup>

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِيَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ : يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي ، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ ، إِلَّا الْغَرْقَدَ ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ " <sup>٣٢</sup>

## ٦- الفروق الكبيرة بين الأمة الإسلامية والأمم السابقة:

فرق كبير بين الأمة الإسلامية بين الأمم التي سبقتها ، حيث كان الرسل يؤيدهم الله تعالى بالمعجزات ويهلك من عاداهم من الكفار دون أن يكون هناك قتال بين الطرفين وأما أمة محمد ﷺ فأمرها يختلف اختلافاً كلياً عنهم؛ فقد أمرها تعالى بالأخذ بأسباب النصر مع التوكل التام على الله تعالى ووعداها بعد ذلك بالنصر والتأييد.

<sup>٣٠</sup> - مسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٧٨٤) (١٦٩٥٧) ١٧٠٨٢ - صحيح

<sup>٣١</sup> - مصنف ابن أبي شيبة - دار القبة (١٠/ ٢٥٦) (١٩٦٨٨) صحيح مرسل

نطحه أو نطحتان : معركة كبيرة أو معركتان ، القادسية وهاوند ويؤيد ما يتعلق بالروم حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ ، أَنَّ الْمُسْتَوْرِدَ قَالَ : بَيْنَا أَنَا عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ فَقُلْتُ لَهُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : أَشَدُّ النَّاسِ عَلَيْكُمْ الرُّومُ ، وَإِنَّمَا هَلَكْتُمْ مَعَ السَّاعَةِ .. مسند أحمد (عالم الكتب) (٦/ ١٧٨) (١٨٠٢٣) ١٨١٨٦ - حسن

<sup>٣٢</sup> - صحيح مسلم (٤/ ٢٢٣٩) ٨٢ - (٢٩٢٢)

[ ش (إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود) الغرقد نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس وقال أبو حنيفة الدينوري إذا عظمت العوسجة صارت غرقدة]

فهذا رسول الله ﷺ يأخذ كل الاحتياطات من أجل الهجرة ولم يعتمد على وعد الله تعالى فقط، وكذلك في جميع غزواته.

والنصر الذي يكون بلا ثمن لا قيمة له بتاتا؛ فقد قال تعالى لنا: { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ } (٢١٤) سورة البقرة هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى، وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها، وإلى سنته - سبحانه - في تربية عباده المختارين، الذين يكل إليهم رايته، وينوط بهم أمانته في الأرض ومنهجه وشريعته.

وهو خطاب مطرد لكل من يختار لهذا الدور العظيم ..

وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة .. إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه. من الرسول الموصول بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله. إن سؤالهم: «مَتَى نَصُرُ اللَّهُ؟» ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة. ولن تكون إلا محنة فوق الوصف، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب: «مَتَى نَصُرُ اللَّهُ؟» ..

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة .. عندئذ تتم كلمة الله، ويحيى النصر من الله: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» .. إنه مدخر لمن يستحقونه. ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية. الذين يثبتون على البأساء والضراء.

الذين يصمدون للزلزلة. الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة. الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله. وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها، فهم يتطلعون فحسب إلى «نَصْرُ اللَّهِ»، لا إلى أي حل آخر، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله. ولا نصر إلا من عند الله.

بهذا يدخل المؤمنون الجنة، مستحقين لها، جديرين بها، بعد الجهاد والامتحان، والصبر والثبات، والتجرد لله وحده، والشعور به وحده، وإغفال كل ما سواه وكل من سواه.

إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة، ويرفعها على ذواتها، ويطهرها في بوتقة الألم، فيصفو عنصرها ويضيء، ويهب العقيدة عمقا وقوة وحيوية، فتتألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها. وعندئذ يدخلون في دين الله أفواجا كما وقع، وكما يقع في كل قضية حق، يلقي أصحابها ما يلقون في أول الطريق، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين ..

على أنه - حتى إذا لم يقع هذا - يقع ما هو أعظم منه في حقيقته. يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشروها وفتنتها، وأن تنطلق من إसार الحرص على الدعة والراحة، والحرص على الحياة نفسها في النهاية .. وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها، وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء. كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيتها المؤمنون، المؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته. وهذا الانطلاق هو المؤهل لحياة الجنة في نهاية المطاف .. وهذا هو الطريق .. هذا هو الطريق كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى، وللجماعة المسلمة في كل جيل.

هذا هو الطريق: إيمان وجهاد .. ومحنة وابتلاء. وصبر وثبات .. وتوجه إلى الله وحده. ثم يجيء النصر. ثم يجيء النعيم .. ٣٣ .

أما وقد استنقذ الله سبحانه المؤمنين برحمته، وهداهم الصراط المستقيم بفضله، فقد وجب عليهم أداء أمانة هذا الدين الذي هداهم الله إليه، فالدين ليس مجرد مفاهيم أو تصورات يتلقاها المؤمن من نصوص الشريعة، وإنما هو مع ذلك سلوك قائم في ظل هذه المفاهيم وتلك التصورات، فالطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره، والمؤمنون مبتلون في أموالهم وأنفسهم، ممتحنون في إيمانهم وصبرهم، كما يقول الله تعالى: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ» (سورة محمد) ويقول سبحانه «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ» (١٥٥: سورة البقرة) .

٣٣ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٥٥)

فالذين آمنوا بالله واتبعوا رسول الله، معرضون لهذا الامتحان الذي يمتحن به المؤمنون، أتباع رسل الله، فكم حمل هؤلاء الرسل وأتباعهم من أعباء، وكم لاقوا من أهوال، وكم تجرعوا من غصص، مما رهقهم به سفهاء أقوامهم من جهالات وسفاهات: «مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا» أي اضطربت مشاعرهم وتبلبلت خواطرهم، واستيأسوا وظنوا أنهم أحيط بهم، فاستعجلوا النصر الذي وعدهم الله، كما يقول سبحانه: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» (٢٨: المجادلة) وقالوا: «مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟» وكأنهم يقولون فيما يقولون: أين نصر الله الذي وعدنا به؟.

ومن آفاق الحق ومن قلوب أولياء الله الراسخين في الإيمان، يجيء هذا المدد الكريم، يسوق بين يديه بشریات الفرج المرتقب والنصر الموعود: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» . إن راية الحق لا تنكس أبدا، إذا هي شددت إلى أيد مؤمنة مستمسكة بالحق، معتصمة بالصبر، مستعدة للذل والتضحية، فإن المجاهدين تحت هذه الراية، إنما يجاهدون تحت راية الله، وحسبهم بالله معينا وناصرا «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (٣٢: المجادلة) وقوله تعالى: «وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ» أي ولما تصابوا بما أصيب به من سبقكم من المؤمنين في الأمم الماضية من شدائد ومحن، فالمثل هنا هو الواقعة المادية، وليس الصورة اللفظية الحاكية لتلك الواقعة.<sup>٣٤</sup>

وقال تعالى: { حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } (١١٠) سورة يوسف وقوله تعالى: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا» .. حتى حرف غاية لما قبله.. وهنا كلام محذوف هو الغاية التي يشير إليها هذا الحرف.. والتقدير: أن مهمة الرسل هي الوقوف في وجه هذا الظلام الزاحف، والتصدي لتلك القوى العاتية من قوى الشر والعدوان، وأنهم مطالبون بأن يثبتوا، ويصبروا، ويصابروا. فإن نصر الله آت لا ريب فيه.. وهكذا يظل الرسل في متلاطم الشدائد والحن، حتى لقد يدخل اليأس

<sup>٣٤</sup> - التفسير القرآني للقرآن (١/ ٢٣٦)

عليهم، وتغيم الحياة في أعينهم، ويغمّ عليهم طريق النجاة، ويخيل إليهم أن النصر أبعد ما يكون منهم - عندئذ تهب ريح النصر، وتطلع عليهم تباشير الصباح، فتطوى جحافل الظلام، وتطارد فلوله..

وإذا دولة الباطل قد ذهبت، وذهبت آثارها، وإذا راية الحق قد علت، وخفقت أعلامها..

وفي هذا تسليّة للنبيّ الكريم، وشحد لعزيمته، وتثبيت لقدمه، وتطمين لقلبه، وتأكيد للوعد الذي وعد به من ربّه في قوله تعالى: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» (٢١: المجادلة) هذا، وليس في استيئاس الرسل، وفي إطفاء الظنون بهم، وبأنهم قد كذبوا - ليس في هذا ما ينقص من قدر الرسل، أو يشكك في كمال إيمانهم برهم، واستيقانهم من صدق وعده.. فهم على يقين راسخ بما وعدهم الله به، ولكن هناك مواقف حادّة من الضيق، وأحوال بالغة من الشدّة، تأخذ على الإنسان تقديره وتدبيره، وتمثّل له الحقائق المحسوسة التي عايشها، ونزلت من عقله منزل اليقين، وقد قلبت أوضاعها، وتبدّلت حقائقها - عندئذ وللحظة عابرة عبور الطيف، يخون الإنسان يقينه، ويفلت منه زمام أمره.. ثم يعود إلى موقفه، أشدّ تثبّتا، وأقوى يقينا، وأرسخ قدما.. إنها سحابة صيف، تغشى وجه الشمس، ثم لا تلبث حتى تزول، وتسفر الشمس عن وجه أبيض بهاء، وأضواء ضوء، وأصفى صفاء مما كانت عليه قبل أن تمر بها تلك السحابة العابرة..

فتلك الحال التي تمثل الرسل في هذا الموقف، هي القمة التي تنتهي عندها طاقة الاحتمال البشري، في مصادمة الأحداث، ومدافعة الأهوال والشدائد.. وهي قمة لا يبلغها إلا أولو العزم من رسل الله.. حيث تون الخطوة التالية بعدها انخلاعا من عالم البشر، إلى العالم العلويّ، وعندها تهب ريح النصر، وتجيء أمداد السماء! وفي هذا ابتلاء للرسل، واستخلاص لكل ما عندهم من مدخور.. من قوى الصبر والعزم والإيمان..

قوله تعالى: «فَنَجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ» - إشارة إلى أن نصر الله الذي يحقق به لرسله ما وعدهم به، يحمل معه من الهلاك والبلاء للقوم المجرمين.. فإن

هذا النصر إنما يمشى على جثث أعداء الرسل، الذين حاربوهم هذه الحرب القاسية، ودفعوا بهم إلى تلك المآزق الحرجة، حتى لكادوا يفتنّوهم في دينهم: «يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» (٣٢: التوبة) «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ.. مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» الضمير في «قصصهم» يعود إلى الرسل المذكورين في قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ» ففي قصص الرسل، وفي الصراع الذي يدور بينهم وبين السفهاء والضالين من أقوامهم- في هذا القصص عبرة لأولى الأبصار، وذوى الفطنة والرأى.. حيث ينجلي الموقف دائما عن إظهار دين الله، وإعلاء كلمته، وانتصار رسله ومن اتبعهم من المؤمنين، على حين يقع البلاء والخزي والخذلان بالذين كذبوا رسل الله وآذوهم، وصدّوا الناس عن سبيل الله.<sup>٣٥</sup>

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخائق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملا حاسما فاصلا: «جَاءَهُمْ نَصْرُنَا، فَنَقِي مَنْ نَشَاءُ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»..

تلك سنة الله في الدعوات. لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة. ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي تتعلق بها الناس. يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون. ويحل بأس الله بالجرمين، مدمرا ماحقا لا يقفون له، ولا يصدّه عنهم ولي ولا نصير.

ذلك كي لا يكون النصر رخيصة فتكون الدعوات هزلا. فلو كان النصر رخيصة لقيام في كل يوم دعوى بدعوة لا تكلفه شيئا. أو تكلفه القليل. ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثا ولا لعبا. فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء. والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة، لذلك يشفقون أن يدعّوها، فإذا ادّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا

<sup>٣٥</sup> - التفسير القرآني للقرآن (٦٠ / ٧)



يصمد لها إلا الواثقون الصادقون الذين لا يتخلون عن دعوة الله، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة!

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل إما أن تربح ربها معيناً محمداً في هذه الأرض، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربها وأيسر حصيلة! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية - والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاتباع في أي زمان أو مكان - يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله، باستشارة شهواتها وتهديداتها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات! .. ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضاً. وأنه من ثم لا تنضم إليها - في أول الأمر - الجماهير المستضعفة، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا. وأن عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً.

ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق، بعد جهاد يطول أو يقصر. وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجا.<sup>٣٦</sup>

### وجوب الأخذ بالأسباب الشرعية والكونية لتحقيق النصر

لقد بين ربنا سبحانه وتعالى أنه لا بد من الأخذ بالسنن الكونية والشرعية في عوامل النصر والهزيمة

قال تعالى: { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا

<sup>٣٦</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٦٨٢)

تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْنُونَ الْوَيْتَ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) {سورة آل عمران} يُخَاطَبُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ مَصَابِيهِمْ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ فَيَقُولُ لَهُمْ:

لَقَدْ جَرَى عَلَى أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ مِنَ الْأُمَمِ الْعَابِرَةِ نَحْوُ مِمَّا جَرَى لَكُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَصِيبُوا وَقُتِلُوا وَهَزِمُوا. . وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ كَانَتْ لَهُمْ، وَالذَّائِرَةُ كَانَتْ عَلَى الْكَافِرِينَ. . . وَهَذِهِ هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنَّهُ مَا تَقَى الْإِيمَانَ وَالشِّرْكَ إِلَّا نَصَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَأَعْلَى رَايَةِ الْإِيمَانِ، وَهَزَمَ الشِّرْكَ وَأَهْلَهُ، وَنَكَسَ أَعْلَامَهُ. وَأَجْدَرُ النَّاسِ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَسِيرُوا يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِي الْأَرْضِ، وَتَأَمَّلُوا فِيَمَا حَلَّ بِالْأُمَمِ السَّابِقَةِ.

وَمَا تَقَدَّمَ هُوَ بَيَانٌ لِلنَّاسِ كَافَّةً، وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ مِنْهُمْ خَاصَّةً، فَإِلْإِرْشَادُ عَامٍّ لِلنَّاسِ، وَحُجَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، (وَذَلِكَ يَدْحَضُ مَا قَالَهُ الْمُشْرِكُونَ: لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ رَسُولًا حَقًّا لَمَّا غَلَبَ فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ). فَهَذَا الْبَيَانُ وَالْهُدًى يُرْشِدَانِ إِلَى أَنَّ سُنَنَ اللَّهِ حَاكِمَةٌ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، كَمَا هِيَ حَاكِمَةٌ عَلَى سَائِرِ خَلْقِهِ، فَمَا مِنْ قَائِدٍ يُخَالِفُهُ جُنْدُهُ، وَيَتْرُكُونَ حِمَايَةَ النَّعْرِ الَّذِي عَهْدَ إِلَيْهِمْ بِحِمَايَتِهِ، إِلَّا كَانَ حَيْشُهُ عُرْضَةً لِلْهَزِيمَةِ. وَهَذَا الْبَيَانُ هُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَتَفَكَّرُونَ فَيَعْتَبِرُونَ.

وَلَا تَضَعُفُوا عَنِ الْجِهَادِ، وَمَا يَتَطَلَّبُهُ مِنْ حُسْنِ التَّدْبِيرِ وَالْإِعْدَادِ، بِسَبَبِ مَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْفَشَلِ وَالْجِرَاحِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَقَدْتُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ وَالنَّصَرَ سَيَكُونَانِ لَكُمْ إِذَا تَمَسَّكْتُمْ بِحَبْلِ اللَّهِ، وَرَاعَيْتُمْ تَعَالِيَهُ، فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

إِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ، وَقُتِلَ مِنْكُمْ رَجَالٌ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَدْ أَصَابَ أَعْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِمَّا أَصَابَكُمْ، فَلَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَقْعُدُوا وَتَتَقَاعَسُوا عَنِ الْجِهَادِ بِسَبَبِ مَا أَصَابَكُمْ،

فَالْمُشْرِكُونَ قَدْ سَبَقَ أَنْ أَصَابَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ مِثْلَ مَا أَصَابَكُمْ أَنْتُمْ فِي أَحَدٍ، فَلَمْ يَتَقَاعَسُوا، وَلَمْ يَقْعُدُوا عَنِ الْإِعْدَادِ لِلْحَرْبِ وَمُبَاشَرَتِهَا، وَهُمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، فَكَيْفَ تَتَرَدَّدُونَ وَأَنْتُمْ عَلَى حَقٍّ، وَاللَّهُ وَعَدَكُمْ نَصْرَهُ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَكُمْ؟ وَمِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى مُدَاوَلَةَ الْأَيَّامِ بَيْنَ النَّاسِ، فَمَرَّةً تَكُونُ الْعَلْبَةُ لِلْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ، إِذَا أَعَدَّ لَهُ أَهْلُهُ وَاحْتَاطُوا، وَتَرَاحَى أَهْلُ الْحَقِّ، وَمَرَّةً تَكُونُ الْعَلْبَةُ لِلْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ. وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ تَكُونُ دَائِمًا لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى يَنْتَلِي الْمُؤْمِنِينَ لِيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ، وَلِيَتَّخِذَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالًا يُكْرِمُهُمْ بِالشَّهَادَةِ.

وَيُداوِلُ اللَّهُ الْأَيَّامَ بَيْنَ النَّاسِ لِيَمَيِّزَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وَلِيَتَطَهَّرَ نَفُوسُ بَعْضِ ضَعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كُدُورَتِهَا، فَتَصْفَوْا مِمَّا شَابَهَا وَخَالَطَهَا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بِالتَّجَارِبِ الْكَثِيرَةِ، وَالْامْتِحَانِ بِالشَّدَائِدِ، وَلِيَكُونَ الْجِهَادُ وَالْحَرْبُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَسِيلَةً لَتَدْمِيرِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ إِذَا ظَفَرُوا بَعَوْا وَبَطَرُوا.

وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَبِرَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى وَيُمَحِّصَكُمْ فِي الشَّدَائِدِ وَالْجِهَادِ لِيَرَى صِدْقَ إِيْمَانِكُمْ، وَيَرَى مَنْ يَسْتَجِيبُ لِلَّهِ، وَيُخْلِصُ فِي طَاعَتِهِ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ، وَيَصْبِرُ عَلَى مَكَارِهِ الْحُرُوبِ.

يُخَاطَبُ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَهِدَ وَقَعَةَ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَشْهَدُوا بَدْرًا، وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ شَوْقًا لِلْقِتَالِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَكُونَ لَهُمْ يَوْمَ كَيْومٍ بَدْرٍ، وَقَدْ أَلْحُوا عَلَى الرَّسُولِ ﷺ فِي الْخُرُوجِ إِلَى أَحَدٍ لِيُقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ. وَيَقُولُ تَعَالَى لَهُؤُلَاءِ: لَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تُلَاقُوا الْقَوْمَ فِي مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ، فَهَذَا أَنْتُمْ تَرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ فَمَا بِالْكُمْ دَهَشْتُمْ عِنْدَمَا وَقَعَ الْمَوْتُ فِيكُمْ؟ وَمَا بِالْكُمْ تَحْزَنُونَ وَتَضَعِفُونَ عَنْ لِقَاءِ مَا كُنْتُمْ تُحِبُّونَ وَتَتَمَنَّوْنَ؟<sup>٣٧</sup>

ويعضي أحيانا عن طريق الهزيمة والكرب<sup>٣٨</sup>.

## ٧- وجوب الأخذ بأسباب النصر والابتعاد عن أسباب الهزيمة

<sup>٣٧</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٤٣٠، بترقيم الشاملة آليا)

<sup>٣٨</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٨٤)

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) } الأنفال

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبَاتِ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَبِمُوَاجَهَةِ الْكَافِرِينَ بِقُلُوبِ مُؤْمِنَةٍ، وَيَحْتُثُّهُمْ عَلَى عَدَمِ الْفِرَارِ وَتَوَلِّيَةِ الظُّهُورِ لِلْأَعْدَاءِ، وَإِنْ كَانَ الْكَافِرُونَ أَكْثَرَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَدَدًا، لِأَنَّ الْفِرَارَ يُحْدِثُ الْوَهْنَ فِي الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُقَاتِلِ.

وَلَكِنَّهُ تَعَالَى سَمَحَ لِلْمُقَاتِلِ بِحُرِّيَّةِ الْحَرَكَةِ أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ، كَأَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَكَانٍ فِي الْمَعْرَكَةِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، لِنُصْرَةِ فَرِيقٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ لِسَدِّ ثَغْرَةٍ نَفَذَ مِنْهَا الْعَدُوُّ، فَالْمُهْمُ هُوَ أَنْ يَكُونَ هَدَفُ الْمُقَاتِلِ الْمُسْلِمِ النَّصْرَ أَوْ الشَّهَادَةَ، وَإِطَاعَةَ أَمْرِ الْقِيَادَةِ. أَمَّا الَّذِينَ يَتَرُكُونَ الْمَعْرَكَةَ فِرَارًا وَهَرَبًا مِنَ الْمَوْتِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَوَعَّدُهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.<sup>٣٩</sup>

إِنْ قَلَبَ الْمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ رَاسِخًا ثَابِتًا لَا تَهْزِمُهُ فِي الْأَرْضِ قُوَّةٌ، وَهُوَ مُوَصُولٌ بِقُوَّةِ اللَّهِ الْغَالِبِ عَلَى أَمْرِهِ، الْقَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِهِ .. وَإِذَا جَازَ أَنْ تَنَالَ هَذَا الْقَلْبَ هَزَةٌ - وَهُوَ يُوَاجِهُ الْخَطَرَ - فَإِنْ هَذِهِ الْهَزَةُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَبْلُغَ أَنْ تَكُونَ هَزِيمَةً وَفِرَارًا. وَالْأَجَالَ بِيَدِ اللَّهِ، فَمَا يَجُوزُ أَنْ يُولِيَ الْمُؤْمِنُ خَوْفًا عَلَى الْحَيَاةِ. وَلَيْسَ فِي هَذَا تَكْلِيفٌ لِلنَفْسِ فَوْقَ طَاقَتِهَا. فَالْمُؤْمِنُ إِنْسَانٌ يُوَاجِهُ عَدُوَّهُ إِنْسَانًا. فَهُمَا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ يَقِفَانِ عَلَى أَرْضٍ وَاحِدَةٍ. ثُمَّ يَمْتَنَزُ الْمُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مُوَصُولٌ بِالْقُوَّةِ الْكُبْرَى الَّتِي لَا غَالِبَ لَهَا. ثُمَّ إِنَّهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ كَانَ حَيًّا، وَإِلَى اللَّهِ إِنْ كَتَبَتْ لَهُ الشَّهَادَةَ. فَهُوَ فِي كُلِّ حَالَةٍ أَقْوَى مِنْ خَصْمِهِ الَّذِي يُوَاجِهُهُ وَهُوَ يَشَاقُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. وَمِنْ ثَمِّ هَذَا الْحُكْمِ الْقَاطِعُ: «وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ - إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ - فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

وَلَا بَدَّ أَنْ نَقِفَ هُنَا عِنْدَ التَّعْبِيرِ ذَاتَهُ، وَمَا فِيهِ مِنْ إِيمَاءَاتٍ عَجَبِيَّةٍ: «فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ» .. «وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ» .. فَهُوَ تَعْبِيرٌ عَنِ الْهَزِيمَةِ فِي صَوَرَتِهَا الْحَسِيَّةِ، مَعَ التَّقْبِيحِ وَالتَّشْنِيعِ، وَالتَّعْرِيزِ بِإِعْطَاءِ الْأَدْبَارِ لِلْأَعْدَاءِ! .. ثُمَّ: «فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» ..

<sup>٣٩</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٧٦، بترقيم الشاملة آلبا)

فالمهزوم مولّ ومعه «غضب من الله» يذهب به إلى مأواه: «وَمَا أَوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» ٤٠..

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) { [الأنفال]

يَحُثُّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الثَّبَاتِ عِنْدَ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ ، وَيَأْمُرُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، لِتَقْوَى قُلُوبُهُمْ ، وَتَثْبُتَ نَفُوسُهُمْ ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ الْفَوْزِ وَالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي الدُّنْيَا ، وَمِنْ أَسْبَابِ الْفَوْزِ بِالْفَلَاحِ وَبِرِضْوَانِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ .

وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ تَعَالَى فِي الثَّبَاتِ عِنْدَ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَبِالْإِخْلَاصِ لَهُ ، وَبِبَذْلِ الْجُهْدِ فِي الْقِتَالِ ، وَبِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا لِتَطْمَئِنَّ النُّفُوسُ وَتَهْدَأَ ، وَيُزِيلَهَا الْخَوْفُ وَالتَّرَدُّدُ وَالْقَلَقُ ، كَمَا أَمَرَهُمْ بِطَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَالتَّزَامِ أَوَامِرِهِ ، إِنْجَاحًا لِلْخُطَّةِ الْعَامَّةِ لِلْجَيْشِ فِي الْمَعْرَكَةِ . ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالْأَمْرِ بِالنَّازِعِ ، وَلَا يَخْتَلِفُوا ، لِأَنَّ فِي التَّنَازُعِ وَالْاِخْتِلَافِ الْفَشْلَ وَالْخُذْلَانَ وَضَيَاعَ مَا حَقَّقَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْمَعْرَكَةِ {وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} . ثُمَّ يَكْرُرُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِالتَّزَامِ الصَّبْرِ ، لِأَنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

وَعَلَيْكُمْ ، أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، أَنْ تَمَثَّلُوا لِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ تَعَالَى ، وَطَاعَةِ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ ، وَالتَّزَامِ أَوَامِرِهِمَا ، وَلَا تَكُونُوا كَأَعْدَائِكُمُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ بَطْرًا بِمَا أُوتُوا مِنَ النِّعْمَةِ ، وَمُرَاءَاةَ لِلنَّاسِ لِيُعْجَبُوا بِهِمْ ، وَيُثْنُوا عَلَيْهِمْ بِالْغِنَى وَالْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ . وَهُمْ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِخُرُوجِهِمُ الصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَنْعَ النَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَالْحَدَّ مِنْ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِأَعْمَالِهِمْ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ ، وَسَوْفَ يُجَازِيهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ٤١

٤٠ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٢٣)

٤١ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٠٦ ، بترقيم الشاملة آلبا)

فهذه هي عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو. والاتصال بالله بالذكر. والطاعة لله والرسول.

وتجنب النزاع والشقاق. والصبر على تكاليف المعركة. والحذر من البطر والرئاء والبغي

..

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر. فأثبت الفريقين أغلبهما. وما يدري الذين آمنوا أن عدوهم يعاني أشد مما يعانون وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسينين: الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها، ولا حياة له سواها؟! وأما ذكر الله كثيرا عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة، وحكاها عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي.

ومما حكاها القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عندما استسلمت قلوبهم للإيمان فجأة، فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغوي، قولهم: «وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا. رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» ..

ومما حكاها كذلك عن الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل، وهي تواجه جالوت وجنوده: «وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» ..

ومما حكاها عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ في مواجهة المعركة: «وَكَايْنِ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ، فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا، وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ. وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

ولقد استقر هذا التعليم في نفوس العصبة المسلمة فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدوا. وقد حكى الله - فيما بعد - عن العصبة التي أصابها القرح في «أحد» فلما دُعيت إلى الخروج ثاني يوم، كان هذا التعليم حاضرا في نفوسها: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» .. إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى: إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب والثقة بالله الذي ينصر أوليائه .. وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها، فهي معركة لله، لتقرير ألوهيته في الأرض، وطرده الطواغيت المعتصبة لهذه الألوهية وإذن فهي معركة لتكون كلمة الله هي العليا لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصي أو القومي .. كما أنه توكيد لهذا الواجب - واجب ذكر الله - في أخرج الساعات وأشد المواقف .. وكلها إيجاءات ذات قيمة في المعركة يحققها هذا التعليم الرباني.

وأما طاعة الله ورسوله، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء فتبطل أسباب التزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة: «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» .. فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار. فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للتزاع بينهم - مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة - فليس الذي يثير التزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع «الذات» في كفة، والحق في كفة وترجيح الذات على الحق ابتداء! .. ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة .. إنه من عمليات «الضبط» التي لا بد منها في المعركة .. إنها طاعة القيادة العليا فيها، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها. وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلا .. والمسافة كبيرة كبيرة.

وأما الصبر. فهو الصفة التي لا بد منها لخوض المعركة .. أية معركة .. في ميدان النفس أم في ميدان القتال.

«وَأَصْبِرُوا، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» .. وهذه المعية من الله هي الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح ..

ويبقى التعليم الأخير: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ..

يبقى هذا التعليم ليحمي العصبة المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعجب بقوتها! وتستخدم نعمة القوة التي أعطاها الله لها في غير ما أرادها .. والعصبة المؤمنة إنما تخرج للقتال في سبيل الله تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر، وتقرير عبودية العباد لله وحده. وتخرج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله في تعبيد العباد له وحده، والتي تزاول الألوهية في الأرض بمزاولتها للحاكمية - بغير إذن الله وشرعه - وتخرج لإعلان تحرير «الإنسان» في «الأرض» من كل عبودية لغير الله، تستذل إنسانية الإنسان وكرامته.

وتخرج لحماية حرمة الناس وكراماتهم وحياتهم، لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر. وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد وفي إقامة منهجه في الحياة وفي إعلاء كلمته في الأرض وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه .. حتى الغنائم التي تخلفها المعركة فهي من فضل الله ..

ولقد كانت صورة الخروج بطرا ورثاء الناس وصدا عن سبيل الله حاضرة أمام العصبة المسلمة يرونها في خروج قريش بالصورة التي خرجت بها كما كانت صورة العاقبة لهذا الخروج حاضرة فيما أصاب قريشا التي خرجت في ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبريائها تحاد الله ورسوله: وعادت في آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة .. وكان الله سبحانه يذكر العصبة المسلمة بشيء حاضر له وقعه وله إيجاؤه: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ



خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ»

..

والبطر والمراعاة والصد عن سبيل الله تتجلى كلها في قولة أبي جهل، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عِيرَهُ أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ: إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عِيرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ فَارْجِعُوا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَاللَّهِ لَا تَرْجِعْ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا - وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ سُوقٌ كُلَّ عَامٍ - فَتُقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَتَنْحَرُ الْجُزُرُ الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا، فَاْمَضُوا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عِيرَهُ أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ: إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عِيرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ فَارْجِعُوا، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَاللَّهِ لَا تَرْجِعْ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا - وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ سُوقٌ كُلَّ عَامٍ - فَتُقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَتَنْحَرُ الْجُزُرُ الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا، فَاْمَضُوا.

وَقَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيْقٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ وَهَبٍ الثَّقَفِيُّ، وَكَانَ حَلِيفًا لِبَنِي زُهْرَةَ وَهُمْ بِالْجُحْفَةِ يَا بَنِي زُهْرَةَ قَدْ نَجَّى اللَّهُ لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَخَلَّصَ لَكُمْ صَاحِبَكُمْ مَخْرَمَةَ بْنِ نَوْفَلٍ وَإِنَّمَا نَفَرْتُمْ لَتَمْنَعُوهُ وَمَالَهُ فَاجْعَلُوا لِي جُبَّتَهَا وَارْجِعُوا، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ لَكُمْ بِأَنْ تَخْرُجُوا فِي غَيْرِ ضَيْعَةٍ لَا مَا يَقُولُ هَذَا، يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ. فَارْجِعُوا، فَلَمْ يَشْهَدْهَا زُهَيْرِي وَاحِدٌ أَطَاعُوهُ وَكَانَ فِيهِمْ مُطَاعًا. وَلَمْ يَكُنْ بَقِيَ مِنْ قُرَيْشٍ بَطْنٌ إِلَّا وَقَدْ نَفَرَ مِنْهُمْ نَاسٌ إِلَّا بَنِي عَدِيٍّ بْنِ كَعْبٍ، لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَارْجَعَتْ بَنُو زُهْرَةَ مَعَ الْأَخْنَسِ بْنِ شَرِيْقٍ، فَلَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا مِنْ هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ أَحَدٌ، وَمَشَى الْقَوْمُ. وَكَانَ بَيْنَ طَالِبِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - وَكَانَ فِي الْقَوْمِ - وَبَيْنَ بَعْضِ قُرَيْشٍ مُحَاوَرَةً فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَقَدْ عَرَفْنَا يَا بَنِي هَاشِمٍ وَإِنْ خَرَجْتُمْ مَعَنَا، أَنْ هَوَاكُمُ لَمَعَ مُحَمَّدٍ. فَارْجَعَ طَالِبٌ إِلَى مَكَّةَ مَعَ مَنْ رَجَعَ. وَقَالَ طَالِبُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ

لَا هُمْ إِمَّا يَغْزُونَ طَالِبَ ... فِي عُصْبَةٍ مُحَالِفٍ مُحَارِبٍ

فِي مَقْتَبٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَانِبِ ... فَلْيَكُنِ الْمَسْلُوبُ غَيْرَ السَّالِبِ  
وَلْيَكُنِ الْمَعْلُوبُ غَيْرَ الْعَالِبِ ..<sup>٤٢</sup>

وصحت فراسة أبي سفيان، وأصاب محمد - ﷺ - النفير وذل المشركون بالبطر والبغي  
والرياء والصد عن سبيل الله وكانت بدر قاصمة الظهر لهم: «وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ»

..

لا يفوته منهم شيء، ولا يعجزه من قوتهم شيء، وهو محيط بهم وبما يعملون.<sup>٤٣</sup>

-----

وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ  
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } (٢٤) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ  
الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) { [الأنفال]  
يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالِاسْتِجَابَةِ إِلَى دَعْوَتِهِ تَعَالَى، وَإِلَى دَعْوَةِ رَسُولِهِ ﷺ الَّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ  
بِإِبْلَاغِهَا إِلَيْهِمْ، لِأَنَّهَا تُزَكِّي نَفْسَهُمْ وَتُطَهِّرُهَا، وَتُحْيِيهَا بِالْإِيمَانِ، وَتَرْفَعُهَا إِلَى مَرَاتِبِ  
الْكَمَالِ فَتَحْظِيَ بِرِضَا اللَّهِ، ثُمَّ يُعَلِّمُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ يُوجِّهُهَا  
كَيْفَ يَشَاءُ، فَيَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ قَلْبِهِ، فَيُمِيتُ الْإِحْسَاسَ وَالْوَجْدَانَ وَالْإِدْرَاكَ فِيهِ،  
فَتَشُلُّ الْإِرَادَةَ، وَيَفْقِدُ الْإِنْسَانُ سَيِّطَرَتَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ، وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ، فَلَا تَعُودُ تَنْفَعُ فِيهِ  
الْمَوَاعِظُ وَالْعِزُّ. وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُنْقِذَهُمْ مِمَّا تَرَدَّوْا فِيهِ، إِذَا اتَّجَّهُوا  
إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ. ثُمَّ يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ،  
وَيَجْزِيَهُمْ عَلَيْهَا بِمَا يَسْتَحِقُّونَ.

يُحَذِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَقُوعِ الْبَلَاءِ وَالْفِتَنِ بَيْنَهُمْ إِذَا لَمْ يَقُومُوا بِوَاجِبِهِمْ نَحْوَ  
دِينِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ فِي الْجِهَادِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَفِي الضَّرْبِ عَلَى  
أَيْدِي الْمُفْسِدِينَ، وَفِي النَّصْحِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ، وَفِي إِطَاعَةِ أَوْلِي الْأَمْرِ. وَيُنَبِّهُهُمْ

<sup>٤٢</sup> - سيرة ابن هشام [٦١٨ / ١]

<sup>٤٣</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٦٦)

تَعَالَى إِلَى أَنْ الْعِقَابَ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللَّهُ بِالْأُمَمِ الْمُقْصِرَةِ بِالْقِيَامِ بِوَاجِبَاتِهَا لَا يُصِيبُ السَّيِّئَ وَحَدَهُ، وَإِنَّمَا يَعْمُ بِهِ الْمُسِيءَ وَغَيْرَهُ، وَيُعْلِمُهُمْ أَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْأُمَمِ الَّتِي تُخَالِفُ سُنَنَهُ وَهَدَى دِينَهُ، وَتُقْصِرُ فِي دَرْءِ الْفِتَنِ، وَفِي التَّعَاوُنِ عَلَى دَفْعِهَا، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا.<sup>٤٤</sup> وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) سورة الأنفال . فهي دعوة للحياة .. للحياة الدائمة المتجددة. لا لحياة تاريخية محدودة في صفحة عابرة من صفحات التاريخ.

هذا الدرس يعرض تجربتين من تجارب الأمم يضمهما إلى ذخيرة هذه الأمة من التجارب ويعدّهما الجماعة المسلمة لما هي معرضة له في حياتها من المواقف بسبب قيامها بدورها الكبير، بوصفها وارثة العقيدة الإيمانية، ووارثة التجارب في هذا الحقل الخصب. والأولى تجربة لا يذكر القرآن أصحابها ويعرضها في اختصار كامل، ولكنه واف. فهي تجربة جماعة «خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ» .. فلم ينفعهم الخروج والفرار والحذر وأدركهم قدر الله الذي خرجوا حذرا منه .. فقال لهم الله: «مُوتُوا» .. «ثُمَّ أَحْيَاهُمْ» .. لم ينفعهم الجهد في اتقاء الموت، ولم يبدلوا جهدا في استرجاع الحياة. وإنما هو قدر الله في الحالين.

وفي ظل هذه التجربة يتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم على القتال، وعلى الإنفاق في سبيل الله، واهب الحياة. وواهب المال. والقادر على قبض الحياة وقبض المال. والثانية تجربة في حياة بني إسرائيل من بعد موسى .. بعد ما ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلوا لأعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدي ربهم، وتعاليم نبيهم .. ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة واستيقظت في قلوبهم العقيدة واشتاقوا القتال في سبيل الله. فقالوا: «لَنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

<sup>٤٤</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١١٨٥)، بترقيم الشاملة آليا

ومن خلال هذه التجربة - كما يعرضها السياق القرآني الموحى - تبرز جملة حقائق، تحمل إيجابيات قوية للجماعة المسلمة في كل جيل، فضلا على ما كانت تحمله للجماعة المسلمة في ذلك الحين.

والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة - انتفاضة العقيدة - على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجا بعد فوج في مراحل الطريق - على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدا ..

فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين. ولقد جاءت لهم بملك داود، ثم ملك سليمان - وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه والذي لم يبلغوه من قبل في عهد النبوة الكبرى .. وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لا انتفاضة العقيدة من تحت الركاب وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت!

وفي خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين:

من ذلك .. أن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها. فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة .. فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل - من ذوي الرأي والمكانة فيهم - إلى نبيهم في ذلك الزمان، يطلبون إليه أن يختار لهم ملكا يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم، الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون. فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال، وقال لهم: «هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا! « استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماسهم إلى الذروة وهم يقولون له: «وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا؟» ..

ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة وكما يقول السياق بالإجمال: «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» .. ومع أن لبني إسرائيل طابعا خاصا في النكول عن العهد، والنكوص عن الوعد، والتفرق في منتصف الطريق .. إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال، في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب .. وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل .. فيحسن الانتفاع فيها بتجربة بني إسرائيل. ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول .. فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم. ولم تبق إلا قلة مستمسكة بعهدا مع نبيها. وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت بعد الحجاج والجدال حول جدارته بالملك والقيادة، ووقوع علامة الله باختياره لهم، ورجعة تابوهم وفيه مخلفات أنبيائهم تحمله الملائكة ...! <sup>٤٥</sup> إن رسول الله - ﷺ - إنما يدعوهم إلى ما يحييهم .. إنها دعوة إلى الحياة بكل صور الحياة، وبكل معاني الحياة ..

إنه يدعوهم إلى عقيدة تحيي القلوب والعقول، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة، ومن الخضوع المذل للأسباب الظاهرة والاحتميات القاهرة، ومن العبودية لغير الله والمذلة للعبد أو للشهوات سواء .. ويدعوهم إلى شريعة من عند الله تعلن تحرر «الإنسان» وتكرمه بصدورها عن الله وحده، ووقوف البشر كلهم صفا متساوين في مواجهتها لا يتحكم فرد في شعب، ولا طبقة في أمة، ولا جنس في جنس، ولا قوم في قوم .. ولكنهم ينطلقون كلهم أحرارا متساوين في ظل شريعة صاحبها الله رب العباد. ويدعوهم إلى منهج للحياة، ومنهج للفكر، ومنهج للتصور يطلقهم من كل قيد إلا ضوابط الفطرة، المتمثلة في الضوابط التي وضعها خالق الإنسان، العليم بما خلق هذه

<sup>٤٥</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٣٠)

الضوابط التي تصون الطاقة البانية من التبدد ولا تكبت هذه الطاقة ولا تحطمها ولا تكفها عن النشاط الإيجابي البناء.

ويدعوهم إلى القوة والعزة والاستعلاء بعقيدتهم ومنهجهم، والثقة بدينهم وبرهم، والانطلاق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» بجملته وإخراجه من عبودية العباد إلى عبودية الله وحده وتحقيق إنسانيته العليا التي وهبها له الله، فاستلبها منه الطغاة! ويدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، لتقرير ألوهية الله سبحانه - في الأرض وفي حياة الناس وتحطيم ألوهية العبيد المدعاة ومطاردة هؤلاء المعتدين على ألوهية الله - سبحانه - وحاكميته وسلطانه حتى يفيئوا إلى حاكمية الله وحده وعندئذ يكون الدين كله لله. حتى إذا أصابهم الموت في هذا الجهاد كان لهم في الشهادة حياة.

ذلك يحمل ما يدعوهم إليه الرسول ﷺ - وهو دعوة إلى الحياة بكل معاني الحياة. إن هذا الدين منهج حياة كاملة، لا مجرد عقيدة مستسرة. منهج واقعي تنمو الحياة في ظله وترقى. ومن ثم هو دعوة إلى الحياة في كل صورها وأشكالها .. وفي كل مجالاتها ودلالاتها. والتعبير القرآني يحمل هذا كله في كلمات قليلة موحية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» .. استجيبوا له طائعين مختارين وإن كان الله - سبحانه - قادرا على قهركم على الهدى لو أراد: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ» .. ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة .. «يحول بين المرء وقلبه» فيفصل بينه وبين قلبه ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه، ويصرفه كيف شاء، ويقلبه كما يريد. وصاحبه لا يملك منه شيئا وهو قلبه الذي بين جنبيه! إنها صورة رهيبة حقا يمثّلها القلب في النص القرآني، ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب، ووصف هذا الإيقاع في العصب والحس! إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة، والحذر الدائم، والاحتياط الدائم. اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفقاته والحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقا والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس. والتعلق الدائم بالله سبحانه مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته، أو غفلة من غفلاته، أو دفعة من دفعاته ..

ولقد كان رسول الله - ﷺ - وهو رسول الله المعصوم يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: " يَا مُقْلَبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ فَقَالَ لَهُ أَهْلُهُ أَوْ أَصْحَابُهُ: أَتَخَافُ عَلَيْنَا وَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ قَالَ: إِنَّ الْقُلُوبَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا " ٤٦ ..

فكيف بالناس، وهم غير مرسلين ولا معصومين؟! إنها صورة تَهز القلب حقاً ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات، ناظراً إلى قلبه الذي بين جنبيه، وهو في قبضة القاهر الجبار وهو لا يملك منه شيئاً، وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير! صورة يعرضها على الذين آمنوا وهو يناديهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» ..

ليقول لهم: إن الله قادر على أن يقهركم على الهدى - لو كان يريد - وعلى الاستجابة التي يدعوكم إليها هذه الدعوة، ولكنه - سبحانه - يكرمكم فيدعوكم لتستجيبوا عن طواعية تنالون عليها الأجر وعن إرادة تعلو بها إنسانيتكم وترتفع إلى مستوى الأمانة التي ناطها الله بهذا الخلق المسمى بالإنسان .. أمانة الهداية المختارة وأمانة الخلافة الواعية، وأمانة الإرادة المتصرفة عن قصد ومعرفة.

«وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» .. فقلوبكم بين يديه. وأنتم بعد ذلك محشورون إليه. فما لكم منه مفر. لا في دنيا ولا في آخرة. وهو مع هذا يدعوكم لتستجيبوا استجابة الحر المأجور، لا استجابة العبد المقهور.

ثم يحذرهم القعود عن الجهاد، وعن تلبية دعوة الحياة، والتراخي في تغيير المنكر في أية صورة كان: «وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» ..

والفتنة: الابتلاء أو البلاء .. والجماعة التي تسمح لفريق منها بالظلم في صورة من صوره - وأظلم الظلم نبد شريعة الله ومنهجه للحياة - ولا تقف في وجه الظالمين ولا تأخذ الطريق على المفسدين .. جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين المفسدين .. فالإسلام منهج تكافلي إيجابي لا يسمح أن يقعد القاعدون عن الظلم والفساد والمنكر يشيع (فضلاً

٤٦ - شعب الإيمان [٢/ ٢٠٩] (٧٤٢) صحيح

على أن يروا دين الله لا يتبع بل أن يروا ألوهية الله تنكر وتقوم ألوهية العبيد مقامها! )  
 وهم ساكتون. ثم هم بعد ذلك يرجون أن يخرجهم الله من الفتنة لأنهم هم في ذاتهم  
 صالحون طيبون! ولما كانت مقاومة الظلم تكلف الناس التكليف في الأنفس والأموال  
 فقد عاد القرآن يذكر العصبية المسلمة - التي كانت تخاطب بهذا القرآن أول مرة - بما  
 كان من ضعفها وقلة عددها، وبما كان من الأذى الذي ينالها، والخوف الذي يظللها ..  
 وكيف آواها الله بدينه هذا وأعزها ورزقها رزقا طيبا .. فلا تقعد إذن عن الحياة التي  
 يدعوها إليها رسول الله. ولا عن تكاليف هذه الحياة، التي أعزها بها الله، وأعطاهما  
 وحماها: «وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ  
 فَآوَاكُمْ، وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» .. اذكروا هذا  
 لتستيقنوا أن الرسول يدعوكم لما يحييكم واذكروه كي لا تقعدوا عن مكافحة الظلم في  
 كل صوره وأشكاله .. اذكروا أيام الضعف والخوف، قبل أن يوجهكم الله إلى قتال  
 المشركين، وقبل أن يدعوكم الرسول إلى الطائفة ذات الشوكة وأنتم كارهون .. ثم انظروا  
 كيف صرتم بعد الدعوة الحية التي انقلبتم بها أعزاء منصورين مأجورين مرزوقين.  
 يرزقكم الله من الطيبات ليؤهلكم ل شكره فتؤجروا على شكركم لفضله! ويرسم التعبير  
 مشهدا حيا للقلة والضعف والقلق والخوف: «تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» ..

وهو مشهد التربص الوجع، والترقب الفزع، حتى لتكاد العين تبصر بالسلمات الخائفة،  
 والحركات المفزعة، والعيون الزائغة .. والأيدي تمتد للتخطف والقلة المسلمة في ارتقاب  
 وتوجس! ومن هذا المشهد المفزع إلى الأمن والقوة والنصر والرزق الطيب والمتاع  
 الكريم، في ظل الله الذي آواهم إلى حماه: «فَآوَاكُمْ، وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ  
 الطَّيِّبَاتِ» ..

وفي ظل توجيه الله لهم ليذكروا فيؤجروا: «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» ..

فمن ذا الذي يتأمل هذه النقلة البعيدة، ثم لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القوية الغنية  
 .. صوت الرسول الأمين الكريم .. ثم من ذا الذي لا يشكر الله على إيوائه ونصره  
 وآلائه وهذا المشهد وذلك معروضان عليه، ولكل منهما إيقاعه وإيقاؤه؟



على أن القوم إنما كانوا يعيشون هذا المشهد وذاك .. كانوا يذكرون بما يعرفون من حالهم في ماضيهم وحاضرهم .. ومن ثم كان لهذا القرآن في حسهم ذلك المذاق .. والعصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة إنشاء هذا الدين في واقع الأرض وفي حياة الناس قد لا تكون قد مرت بالمرحلتين، ولا تذوقت المذاقين .. ولكن هذا القرآن يهتف لها بهذه الحقيقة كذلك. ولئن كانت اليوم إنما تعيش في قوله تعالى: «إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» .. فأولى لها أن تستجيب لدعوة الحياة التي يدعوها إليها رسول الله وأن تترقب في يقين وثقة، موعود الله للعصبة المسلمة، موعوده الذي حققه للعصبة الأولى، ووعد بتحقيقه لكل عصبة تستقيم على طريقه، وتصبر على تكاليفه .. وأن تنتظر قوله تعالى: «فَأَوَّكُهُمْ وَتَازَهُمُ الْبَرْقُ وَرَزَقَهُمْ مِنْ غَيْرِهِ» .. وهي إنما تتعامل مع وعد الله الصادق - لا مع ظواهر الواقع الخادع - ووعد الله هو واقع العصبة المسلمة الذي يرجح كل واقع!<sup>٤٧</sup>

وقال تعالى : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفٍ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ } (٦٠) سورة الأنفال

يَأْمُرُ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ، وَإِعْدَادِ آلَاتِهَا لِمُقَاتَلَةِ الْكُفَّارِ، وَدَفْعِ الْعُدْوَانِ، وَحِفْظِ الْأَنْفُسِ، وَالْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ، حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالْإِسْطِطَاعَةِ: مِنْ خَيْلٍ وَسِلَاحٍ وَعُدَدٍ وَمُؤْنٍ وَتَدْرِيبٍ وَعِلْمٍ وَكُلِّ مَا يَدْخُلُ فِي تَعْرِيفِ الْقُوَّةِ الَّتِي تُمَكِّنُ الْأُمَّةَ مِنْ مُقَاوَمَةِ خُصُومِهَا، بِحَسَبِ مَفْهُومِ الْعَصْرِ، وَذَلِكَ لِإِرْهَابِ الْكُفَّارِ - مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ غَيْرِهِمْ - أَعْدَاءِ اللَّهِ، وَأَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَلِإِرْهَابِ الْأَعْدَاءِ الْآخَرِينَ مِنْ مُنَافِقِينَ وَيَهُودٍ يُجَاوِرُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ لَا يَعْلَمُهُمْ رَسُولُ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُهُمْ. وَيُخَبِّرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ كُلَّ نَفَقَةٍ يُنْفِقُونَهَا فِي

<sup>٤٧</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٥١٠)

الْجِهَادِ وَالْإِسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ، سَتُوفَى إِلَيْهِمُ بِالتَّامِّ وَالْكَامِلِ، وَلَا يَخْسُ اللَّهُ أَحَدًا مِنْهُمْ شَيْئًا.<sup>٤٨</sup>

لقد سلط الله النبي والمسلمين على هذا العدو المتربص بهم، الكائد لهم، وأمرهم بأن يضربوهم الضربة القاضية التي تأتى عليهم، وتكون مثلاً وعبرة لغيرهم. ولكن.. ما الذي يمكن للنبي والمسلمين من أن يبسطوا يدهم على عدوهم ويتزلوه على حكمهم فيه؟ إنه لا شيء إلا القوة التي يكون عليها المسلمون في الرجال والعتاد.. ومن هنا أتبع القرآن الكريم الأمر بتأديب العدو وبسط اليد عليه- أتبع ذلك بالأمر باتخاذ الوسائل المحققة لهذا الأمر، وذلك بالأخذ بكل أسباب القوة، التي ترجح بها كفة المسلمين في ميادين القتال، ومصادمة العدو. وفي قوله تعالى: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»، أمر باتخاذ القوة، والعمل على بنائها، والتوسل إليها بوسائلها، ومن أهم تلك الوسائل «الخيال».. إذ كانت في هذا الوقت أقوى مظهر من مظاهر القوة والفروسية.. فحيث كانت الخيل، وكان فرسانها، كانت القوة والمنعة.. وفي التعبير عن «الخيال» بقوله تعالى: «وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» إشارة إلى الإكثار من الخيل، وإعدادها للحرب، وتدريبها على القتال، وحبسها على هذا المجال، فلا تتخذ لغرض آخر، بل تكون دائماً مرصودة للقاء العدو، مهيأة للاشتباك معه في أية لحظة.. إنها مرابطة كما يرباط المجاهدون على الثغور لحماية المسلمين، وسد الثغور التي ينفذ منها العدو إليهم!

وفي قوله تعالى: «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» الضمير في «به» يعود إلى رباط الخيل، وأنه مصدر رهبة للعدو. إذا كان هذا الرباط من الكثرة والإعداد على صورة يهاجمها العدو ويعمل حسابها.. وهذا يعنى استعراض تلك القوة المعدة من الخيل وفرسان الخيل، وإظهارها بحيث يراها العدو، ويرى فيها ما يرهبه، ويقتل في نفسه كل داعية من دواعي

<sup>٤٨</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٢١، بترقيم الشاملة آلبا)

الطمع في المسلمين، وفي لقائهم على ميدان القتال.. وهذا يعني أيضا أن يكون هذا الرباط على صورة محققة لإلقاء الرعب والفرع في نفس العدو، وإلا كان ستر هذا الرباط وإخفائه أولى وأحكم من إظهاره.

وهذا يعني كذلك أن الإعداد للحرب ليس لإشباع شهوة الحرب، وإنما هو لإرهاب العدو أولا، حتى يتزجر، ولا تحدّثه نفسه بالحرب حين يرى القوّة الراصدة له. ومن هنا يرى أن الإسلام دين سلام، يعدّ للحرب، حتى تجتمع له القوة الممكنة له من النصر والغلب، ولكنه لا يبدأ الحرب، ولا يسعى إليها، وإنما يجيء إليها مكرها، ويدخل فيها مدافعا، لا مهاجما!! وفي قوله تعالى: «وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» إشارة وتنبيه للمسلمين إلى ألا يكون حسابهم في إعداد القوة مقصورا على هذا العدو الظاهر لهم، ومقدورا بقدره، بل يجب أن يعملوا في تقديرهم حسابا لأعداء آخرين، لم يظهروا لهم، ولم يواجهوهم بعداوة أو قتال..

وهذا يعني أن يبذل المسلمون كثيرا لإعداد هذه القوة التي يحاربون بها أعداءهم الذين يروّهم، والتي يرصدونها للعدو الخفي الذي لم يظهر لهم بعد.. ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ» - جاء داعيا إلى البذل والإنفاق في سبيل الله، فإن الله سبحانه وتعالى سيؤتي المنفقين أجرهم، ويجزل لهم العطاء، فلا يضيع شيء مما بذلوا وأنفقوا، لأن في ضياعه ظلما لهم.. «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا».<sup>٤٩</sup>

أي {وَأَعِدُّوا} لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم. {مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} أي: كل ما تقدر على من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلّم الرمي، والشجاعة والتدبير.

<sup>٤٩</sup> - التفسير القرآني للقرآن (٥ / ٦٤٨)

ولهذا قال النبي ﷺ: {أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ} ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: {وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته. فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابا منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب {وقوله: {تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} {مَنْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ أَعْدَاؤُكُمْ}. {وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ} {مَنْ سَيَقَاتِلُونَكُمْ بَعْدَ هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي يَخَاطِبُهُمُ اللَّهُ بِهِ} {اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغبا في ذلك: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} {قليلًا كان أو كثيرا} {يُوفَّ إِلَيْكُمْ} أجره يوم القيامة مضاعفا أضعافا كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله، تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. {وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ} أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئا.<sup>٥٠</sup>

إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في «الأرض» لتحرير «الإنسان» .. وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة: أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها .. والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسلام» التي تحميها تلك القوة .. والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بمؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» كله في «الأرض» كلها ..

<sup>٥٠</sup> - تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٢٤)

والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده ومن ثم فالحاكمة له وحده سبحانه ..

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب، وتنظيما للشعائر، ثم تنتهي مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية. فلا مفر للإسلام - لإقرار منهجه الرباني - من تحطيم تلك القوى المادية، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى، وتقاوم المنهج الرباني ..

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمع وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة .. ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني. ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا لتقرير سلطان زعيم، أو دولة، أو طبقة، أو جنس! إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية .. إنما ينطلق بمنهج من صنع الله العليم الحكيم الخبير البصير ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعبيد ..

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم يتمتمون ويجمعون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي. ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة. فالنص يقول: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ»

فهي حدود الطاقة إلى أقصاها. بحيث لا تقعد العصبية المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها.

كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة: «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» ..

فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض. الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم. وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم. والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ولتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله.

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالاً، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ» ..

وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله، من كل غاية أرضية، ومن كل دافع شخصي ومن كل شعور قومي أو طبقي، ل يتمحض خالصاً لله «في سبيل الله» لتحقيق كلمة الله، ابتغاء رضوان الله.

ومن ثم ينفي الإسلام من حسابه - منذ الوهلة الأولى - كل حرب تقوم على أجماد الأشخاص والدول.

وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق. وكل حرب تقوم للقهر والإذلال. وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن، أو قوم على قوم، أو جنس على جنس، أو طبقة على طبقة .. ويستبقي نوعاً واحداً من الحركة .. حركة الجهاد في سبيل الله .. والله - سبحانه - لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب. إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته. وهو غني عن العالمين. ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين.<sup>٥١</sup>

**٨- من أهم أسباب النصر الشهادة في سبيل الله ومن أهم أسباب الهزيمة حب الدنيا وكراهية الموت**

<sup>٥١</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٠٨٨)

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤) سورة التوبة

في هذه الآية وضع للمسلمين في مواجهة التجربة والاختبار لإيمانهم، واختيار ما يحبون وما يؤثرون..

فالإيمان في جانب.. والآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والديار.. في جانب آخر..

وعلى المؤمن أن يختار بين الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله، وبين أهله، وماله ودياره.

والاختيار هنا يمكن أن يجزّ به الإنسان بينه وبين نفسه، حين يورد على مشاعره هذين الطرفين المتنازعين في كيانه، وأن يستعرضهما واحدا بعد الآخر، وأن يفترض أنه إذا لم يكن من الممكن الجمع بينهما، فأيهما يؤثر أن يمسك به، ويعيش معه؟

فإذا أثر الإيمان على الولد والأهل والمال والموطن، كان على الصفة التي يتحقق بها الإيمان الذي يقبله الله منه، ويرضاه له.. وإن كان العكس، وآثر الولد والأهل والمال والموطن، على الإيمان بالله ورسوله والولاء للمؤمنين، والجهاد في سبيل الله، فهو أقرب إلى الجبهة المعادية للإسلام، منه إلى الجبهة الموالية له.. «والمرء مع من أحب» .

وفي وصف الأموال، بأنها أموال مقترفة إشارة إلى أن المال غاد ورائح.. وأنه أشبه بالمنكر، إذ كان أكثر ما يجيء المال من حصيلة الصراع بين الناس والناس.

وفي قوله تعالى: «وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا» إشارة إلى ما قد يصيب السوق التجارية من كساد، حين تقوم القطيعة بين المؤمنين والمشركون.

وفي قوله تعالى: «فتربصوا» تهديد ووعيد لأولئك الذين يؤثرون علاقاتهم الدنيوية، على الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله.. والتربص:

الانتظار.. ووراء هذا الانتظار ما يسوء أولئك الذين آثروا الآجلة على العاجلة حين يرون نصر الله للمؤمنين، وما فتح الله عليهم به من مغام في الدنيا، ورضوان في الآخرة، وجنات لهم فيها نعيم مقيم.

ويلاحظ أن قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ.. الآية» قد انتظم كل ما تتعلق به النفوس، وتحرص عليه.. وليس وراءه من أمور الدنيا ما يطلبه الإنسان، ويعلق به.. كما يلاحظ أيضا أن هذه الأمور قد جاءت في النظم القرآني مرتبة الدرجات.. الأهم، فالمهم، فما هو دونه.. وهذا ما يجعل المؤمن أمام تجربة ذات شعب، وأنه قد يؤثر إيمانه على بعضها دون بعض، أو يؤثرها جميعا عليه، أو يؤثر إيمانه عليها جميعا.. كما أن هذه التجربة تنتظم المسلمين جميعا، لا يكاد أحد منهم يفلت من الدخول فيها، فمن لم يكن له أب كان له ولد.. ومن لم يكن له ولد، ولا والد، كان له زوج.. ومن لم يكن له واحد من هؤلاء كان له مال، ومن لم يكن له مال، ولا تجارة يخشى كسادها، كان له موطن يحن إليه، ودار يرنو ببصره إليها..

وهكذا، في كلمات معدودة، تتحرك مشاعر المجتمع الإسلامي، وتتقلب القلوب، ويدور الصراع في كيان كل مسلم، ثم تنجلي المعركة بعد صراع طويل أو قصير، عن سلام وعافية، أو شك وتردد.. ثم يجيء قوله تعالى: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» تعقيبا على هذا الصراع، ممسكا بهؤلاء الشاكين المترددين، لينتزعوا أنفسهم مما هم فيه من شك وتردد، فإما إلى اليمين، وإما إلى اليسار.. والله سبحانه وتعالى في هؤلاء المترددين الشاكين، الذين ظلموا أنفسهم بهذا الموقف الذي وقفوه - الله فيهم أعداء لم يرد الله أن يهديهم، وأن يمضى لهم طريقهم إلى آخره مع الإيمان.. فليحذر كل من هؤلاء أن يكون فيمن خذلهم الله وجعلهم من أعدائه.. «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» الذين دخلوا في دين الله، ثم مال بهم الطريق إلى ما لا يرضى الله!<sup>٥٢</sup>

إن هذه العقيدة لا تحتل لها في القلب شريكا فإما تجرد لها، وإما انسلاخ منها. وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع

<sup>٥٢</sup> - التفسير القرآني للقرآن (٥/ ٧٢٣)



واللذة ولا أن يترهبن ويزهد في طيبات الحياة .. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب، ويخلص لها الحب، وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة، وهي المحركة والدافعة. فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة، على أن يكون مستعداً لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة.

ومفروق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض. فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة والزوجة والعشيرة ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ولا عليه أن يستمتع بزيينة الله والطيبات من الرزق - في غير سرف ولا مخيلة - بل إن المتاع بما حينئذ لمستحب، باعتباره لونا من ألوان الشكر لله الذي أنعم بما ليتمتع بما عباده، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ - إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ -» ..

وهكذا تنقطع أواصر الدم والنسب، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة. وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله. فله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعاً، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك، والحبل مقطوع والعروة منقوضة. «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» .. و «الظَّالِمُونَ» هنا تعني المشركين. فولاية الأهل والقوم - إن استحبوا الكفر على الإيمان - شرك لا يتفق مع الإيمان.

ولا يكتفي السياق بتقرير المبدأ، بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع والذائد ليضعها كلها في كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفة الأخرى: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطعم الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) .. وفي الكفة الأخرى: حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله. الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته. الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من تضيق وحرمان، وما يتبعه من ألم وتضحية، وما يتبعه من جراح واستشهاد .. وهو - بعد هذا كله - «الجهاد في سبيل

الله» مجردا من الصيت والذكر والظهور. مجردا من المباهاة، والفخر والخيلاء. مجردا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه. وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب

..

«قُلْ: إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا، أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ .. فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ... »  
ألا إنها لشاقة. ألا وإها لكبيرة. ولكنها هي ذاك .. وإلا: «فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ».

وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» ..

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده، إنما تطالب به الجماعة المسلمة، والدولة المسلمة. فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيل الله.

وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه - فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها - وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها .. لذة الشعور بالاتصال بالله، ولذة الرجاء في رضوان الله، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط، والخلاص من ثقله اللحم والدم، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء. فإذا غلبتها ثقله الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك.<sup>٥٣</sup>

-----

وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى

<sup>٥٣</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢١٩١)

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) { سورة التوبة

يُعَاتِبُ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ تَخَلَّفَ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، حِينَ طَابَتِ الثَّمَارُ وَالظَّلَالُ، وَكَانَ الْوَقْتُ حَارًّا قَانِظًا، فيَقُولُ تَعَالَى لَهُمْ: مَا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَكَاسَلْتُمْ وَتَبَاطَأْتُمْ، وَمِلْتُمْ إِلَى الدَّعَةِ وَالْإِقَامَةِ فِي الظِّلِّ وَطِيبِ الثَّمَارِ؟ أَفَعَلْتُمْ ذَلِكَ رِضًا مِنْكُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا بَدَلًا مِنَ الْآخِرَةِ؟ وَمَا قِيَمَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا مَتَاعُهَا إِلَّا قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ، إِذْ يَنْتَظِرُونَ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَجَنَاتٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَإِذَا لَمْ تَنْفِرُوا مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَمْ تَخْرُجُوا مَعَهُ إِلَى الْجِهَادِ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا، بِزَوَالِ النِّعْمَةِ وَغَيْرِهَا عَنْكُمْ، وَفِي الْآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَا يَصُغُبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ بِكُمْ، يَخْفُونَ لِنُصْرَةِ نَبِيِّهِ، وَيُجَاهِدُونَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يَضُرُّ اللَّهَ، لِأَنَّهُ الْعَنِيُّ عَنِ الْعِبَادِ، وَالتَّاسُ كُلُّهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ.

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُؤَيِّدُهُ وَكَافِيهِ، كَمَا تَوَلَّى نَصْرَهُ حِينَ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَكَّةَ حِينَ هَاجَرَ، فَخَرَجَ مِنْهَا هَارِبًا بِصُحْبَةِ صَدِيقِهِ وَصَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ، فَلَجَأَ إِلَى غَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ فِي آثَارِهِمَا حَتَّى وَقَفُوا بِبَابِ الْغَارِ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ جَزِعًا: لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ مَوْضِعَ قَدَمَيْهِ لَرَأَانَا. فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِيَهُمَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ طَمَآنِينَتَهُ وَتَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَأَيَّدَهُ بِالْمَلَائِكَةِ تَحْفَظُهُ وَتَحْمِيهِ (بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا)، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الشِّرْكِ وَأَهْلَهُ السُّفْلَى، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ فِي انْتِقَامِهِ وَانْتِصَارِهِ، وَهُوَ مَنِيعُ الْجَانِبِ لَا يُضَامُ، وَهُوَ حَكِيمٌ فِي شَرْعِهِ وَتَدْبِيرِهِ.

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ، وَالْخُرُوجِ جَمِيعاً مَعَ الرَّسُولِ ﷺ إِذَا دَعَاهُمْ إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالزَّمَهُمْ بِالْخُرُوجِ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَالْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، فَقَالَ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا، وَأَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ، وَرُكْبَانًا وَمُشَاةً وَأَقْوِيَاءَ وَضُعَفَاءَ، لِأَنَّ فِي ذَلِكَ خَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهُ لَا عِزَّ لِلْأُمَمِ، وَلَا سِيَادَةَ إِلَّا بِالْقُوَّةِ الْحَرَبِيَّةِ، وَفِيهِ أَيْضاً خَيْرُهُمْ فِي الدِّينِ لِأَنَّهُ لَا سَعَادَةَ لِمَنْ لَمْ يَنْصُرِ الْحَقَّ، وَيُقِمِ الْعَدْلَ بِاتِّبَاعِ الْهُدَى وَالْعَمَلِ بِشَرْعِ اللَّهِ.

وَقَدْ نُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} ٥٤

وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله، إلا وفي هذه العقيدة دخل، وفي إيمان صاحبها بها وهن. لذلك يقول الرسول - ﷺ - «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق». فالنفاق - وهو دخل في العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال - هو الذي يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد في سبيل الله خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله، والرزق من عند الله. وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد: «إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ..

والخطاب لقوم معينين في موقف معين. ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله. والعذاب الذي يتهدهدهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا. عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء. وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء ..

٥٤ - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٧٤، بترقيم الشاملة آلبا)

«وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» .. يقومون على العقيدة، ويؤدون ثمن العزة، ويستعلون على أعداء الله:

«وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا» .. ولا يقام لكم وزن، ولا تقدمون أو تؤخرون في الحساب! «وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .. لا يعجزه أن يذهب بكم، ويستبدل قوما غيركم، ويغفلكم من التقدير والحساب! إن الاستعلاء على ثقله الأرض وعلى ضعف النفس، إثبات للوجود الإنساني الكريم. فهو حياة بالمعنى العلوي للحياة: وإن الثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنساني الكريم. فهو فناء في ميزان الله وفي حساب الروح المميزة للإنسان.

ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخي الذي يعلمونه، على نصره الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء، والنصر من عند الله يؤتاه من يشاء: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ. إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ..

ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعا، كما تضيق القوة الغاشمة دائما بكلمة الحق، لا تملك لها دفعا، ولا تطيق عليها صبرا، فائتمرت به، وقررت أن تتخلص منه فأطلعته الله على ما ائتمرت، وأوحى إليه بالخروج، فخرج وحيدا إلا من صاحبه الصديق، لا جيش ولا عدة، وأعداؤه كثر، وقوتهم إلى قوته ظاهرة. والسياق يرسم مشهد الرسول - ﷺ - وصاحبه: «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ». والقوم على إثرهما يتعقبون، والصديق - رضي الله عنه - يجزع - لا على نفسه ولكن على صاحبه - أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب، يقول له: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. والرسول - ﷺ - وقد أنزل الله سكينته على قلبه، يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟».

فَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ - وَهُوَ فِي الْغَارِ: وَقَالَ مَرَّةً: وَنَحْنُ فِي الْغَارِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، قَالَ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاِثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا<sup>٥٥</sup>

ثم ماذا كانت العاقبة، والقوة المادية كلها في جانب، والرسول ﷺ - مع صاحبه منها مجرد؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس. وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار: «وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى».

وظلت كلمة الله في مكانها العالي منتصرة قوية نافذة: «وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» .. وقد قرئ «وكلمة الله» بالنصب. ولكن القراءة بالرفع أقوى في المعنى. لأنها تعطي معنى التقرير.

فكلمة الله هي العليا طبيعة وأصلا، بدون تصوير متعلق بحادثة معينة. والله «عزيز» لا يذل أولياؤه «حكيم» يقدر النصر في حينه لمن يستحقه.

ذلك مثل على نصره الله لرسوله ولكلمته والله قادر على أن يعيده على أيدي قوم آخرين غير الذين يتناقلون ويتباطئون. وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجة بعد قول الله إلى دليل!

وفي ظلال هذا المثل الواقع المؤثر يدعوهم إلى النفرة العامة، لا يعوقهم معوق. ولا يقعد بهم طارئ، إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير في هذه الأرض وفي الدار الآخرة: «انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ..

انفروا في كل حال، وجاهدوا بالنفوس والأموال، ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير، ولا تخضعوا للعوائق والتعلاات. «ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير، فنفروا والعوائق في طريقهم، والأعداء حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعداء. ففتح الله عليهم القلوب والأرضين، وأعز بهم كلمة الله، وأعزهم بكلمة الله، وحقق على أيديهم ما يعد خارقة في تاريخ الفتوح.

<sup>٥٥</sup> - أخرجه الشيخان وغيرهما المسند الجامع [١١٦٨ / ٩] (٧١٤١) ومسند أحمد (عالم الكتب) [٧٦ / ١] (١١)

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرَأَ سُورَةَ بَرَاءَةِ حَتَّى بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [التوبة: ٤١] فَقَالَ: أُرَانَا اسْتَنْفَرْنَا شُيُوخًا وَشَبَابًا، بَنِي جَهْزُونِي. قَالُوا: يَا أَبَانَا، قَدْ غَزَوْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَغَزَوْتَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَحَنُّ نَعَزُو عَنْكَ. فَأَبَى «فَجَهَّزُوهُ فَعَزَا الْبَحْرَ فَمَاتَ فِي الْبَحْرِ فَلَمْ يَجِدُوا جَزِيرَةً يَدْفِنُوهُ فِيهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ فَلَمْ يَتَغَيَّرْ»<sup>٥٦</sup>

وَعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ " قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ : { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا } [التوبة: ٤١] قَالَ: أَيُّ بَنِيٍّ، مَا أَرَى رَبَّنَا إِلَّا يَسْتَنْفِرُنَا شُيُوخًا وَشَبَابًا، يَا بَنِيَّ جَهْزُونِي جَهْزُونِي، وَقَالَ بَنُوهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، قَدْ غَزَوْتَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى مَاتَ، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَنَحْنُ نَعَزُو عَنْكَ، قَالَ: لَأَ، جَهْزُونِي، فَعَزَا الْبَحْرَ فَتَوَفَّى، وَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفِنُوهُ فِيهَا إِلَّا بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، فَدَفَنُوهُ فِيهَا وَلَمْ يَتَغَيَّرْ " <sup>٥٧</sup>

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَرَأَ سُورَةَ بَرَاءَةِ فَأَتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ: أَرَى رَبَّنَا يَسْتَنْفِرُنَا شُيُوخًا وَشَبَابًا، جَهْزُونِي بَنِيٍّ، قَالَ بَنُوهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، قَدْ غَزَوْتَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ - حَتَّى مَاتَ، وَغَزَوْتَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى مَاتَ وَغَزَوْتَ مَعَ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ، فَحَنُّ نَعَزُو عَنْكَ، فَأَبَى فَرَكَبَ الْبَحْرَ فَمَاتَ، فَلَمْ يَجِدُوا لَهُ جَزِيرَةً يَدْفِنُوهُ فِيهَا إِلَّا بَعْدَ تِسْعَةِ أَيَّامٍ فَلَمْ يَتَغَيَّرْ فَدَفَنُوهُ فِيهَا. <sup>٥٨</sup>

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَيْسَرَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو رَاشِدٍ الْحَبْرَانِيُّ، قَالَ: وَافَيْتُ الْمَقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ جَالِسًا عَلَى تَابُوتٍ مِنْ تَوَائِبِ الصَّيَارِفَةِ يُرِيدُ الْعَزُو، فَقُلْتُ: لَقَدْ أَعَذَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: أَبْتُ عَلَيْنَا سُورَةَ الْبُحُوثِ " انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا " يَعْنِي: سُورَةَ التَّوْبَةِ وَرُويَ عَنْ ابْنِ

<sup>٥٦</sup> - الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٣/ ٤٤٤) (١٨٨٩) صحيح

<sup>٥٧</sup> - معرفة الصحابة لأبي نعيم (٣/ ١١٤٦) (٢٨٧٨) صحيح

<sup>٥٨</sup> - تفسير ابن أبي حاتم - محققا (٦/ ١٨٠٢) (١٠٠٥٥) صحيح

عَبَّاسٍ، وَعِكْرَمَةَ، وَأَبِي صَالِحٍ، وَالْحَسَنَ، وَشَمْرَ بْنَ عَطِيَّةَ، وَمُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ،  
وَالشَّعْبِيَّ، وَزَيْدَ بْنَ أَسْلَمَ، قَالُوا: شُبَّانًا وَكُهُولًا.<sup>٥٩</sup>

وعن حَبَّانَ بْنِ زَيْدٍ الشَّرْعَبِيِّ، قَالَ: " نَفَرْنَا مَعَ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو وَكَانَ وَالِيًا عَلَى حِمَصَ  
قَبْلَ الْأَفْسُوسِ إِلَى الْجَرَّاحِمَةِ، فَلَقِيتُ شَيْخًا كَبِيرًا هَمًّا، قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنْ  
أَهْلِ دِمَشْقَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فِيمَنْ أَغَارَ، فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا عَمَّ لَقَدْ أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَيْكَ، قَالَ:  
فَرَفَعَ حَاجِبَيْهِ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي اسْتَنْفَرْنَا اللَّهُ خِفَافًا وَثِقَالًا، مَنْ يُحِبُّهُ اللَّهُ يَنْتَلِيهِ ثُمَّ يُعِيدُهُ  
فِيئَتِيهِ، وَإِنَّمَا يَنْتَلِي اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ شَكَرَ وَصَبَرَ وَذَكَرَ وَلَمْ يَعْبُدِ إِلَّا اللَّهَ "<sup>٦٠</sup>

وبمثل هذا الجهد في أخذ كلمات الله انطلق الإسلام في الأرض، يخرج الناس من عبادة  
العباد إلى عبادة الله وحده، وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوح التحريرية الفريدة.<sup>٦١</sup>  
وما يحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله ، إلا وفي هذه

-----

وقال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ  
مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ  
الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ  
الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) } سورة التوبة  
يُرْغَبُ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ فِي الْجِهَادِ، وَيُخَبِّرُهُمْ بِأَنَّهُ سَيَعُوضُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ عَنْ بَذْلِهِمْ  
أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَلِإِحْقَاقِ الْحَقِّ، وَإِقَامَةِ  
الْعَدْلِ فِي الْأَرْضِ، فَهُمْ حِينَ يُجَاهِدُونَ يَقْتُلُونَ أَعْدَاءَهُمْ، وَيُقْتَلُونَ هُمْ، وَهُمْ فِي كِلَا

<sup>٥٩</sup> - تفسير ابن أبي حاتم [٢٦٦ / ٧] (١٠٣٩٤) وتفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٢٦٨ / ١٤] (١٦٧٥٦)

صحيح

<sup>٦٠</sup> - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٤٧٠ / ١١) وتفسير ابن كثير - دار طيبة [١٥٧ / ٤] حسن  
" الجراحمة "، نبط الشام، ويقال: هم قوم من العجم بالجزيرة. " الهم " (بكسر الهاء): الشيخ الكبير الفاني البالي.

<sup>٦١</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٢٦٧)



الْحَالِينَ مُثَابُونَ عَلَى ذَلِكَ. وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا الْجَزَاءِ الْحَقِّ، وَجَعَلَهُ حَقًّا عَلَيْهِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ.

ثُمَّ يَدْعُو اللَّهُ تَعَالَى مَنْ التَزَمَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِعَهْدِهِ لِلَّهِ إِلَى الْاسْتِبْشَارِ بِذَلِكَ الْفَوْزِ الْعَظِيمِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَفَاءً بِالْعَهْدِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنْهُ التَّزَامًا بِالْوَعْدِ الَّذِي يَقْطَعُهُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ رِبْحٌ أَكْبَرُ مِنَ الرِّبْحِ الَّذِي يُحَقِّقُهُ الْمُؤْمِنُونَ فِي هَذِهِ الصَّفَقَةِ.

وَهُنَا يُعَدِّدُ اللَّهُ تَعَالَى صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اشْتَرَى مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَهُمْ: النَّائِبُونَ مِنَ الذُّنُوبِ كُلِّهَا، التَّارِكُونَ لِلْفَوَاحِشِ، الْقَائِمُونَ بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَالْحَافِظُونَ عَلَيْهَا، وَالْحَامِدُونَ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ وَأَفْضَالِهِ، السَّائِحُونَ فِي الْأَرْضِ، لِلْإِعْتِبَارِ وَالْاسْتِبْصَارِ بِمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْعِبَرِ وَالْآيَاتِ، (وَقِيلَ أَيْضًا إِنَّ مَعْنَى السَّائِحِينَ هُنَا الصَّائِمُونَ) وَالْمُصَلُّونَ. وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يَسْعَوْنَ فِي نَفْعِ خَلْقِ اللَّهِ، وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى طَاعَتِهِ، بِأَمْرِهِمُ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، مَعَ الْعِلْمِ بِمَا يَنْبَغِي فِعْلُهُ، وَيَجِبُ تَرْكُهُ طَاعَةً لِلَّهِ (أَيَّ إِنَّهُمْ يَحْفَظُونَ حُدُودَ اللَّهِ). وَيُبَشِّرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْكَرِيمَةِ بِخَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.<sup>٦٢</sup>

إن الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين .. الله - سبحانه - فيها هو المشتري والمؤمن فيها هو البائع.

فهي بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه ولا في ماله يحتجزه دون الله - سبحانه - ودون الجهاد في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كله لله. فقد باع المؤمن لله في تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم، هو الجنة: وهو ثمن لا تعدله السلعة، ولكنه فضل الله ومَنَّة: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ. وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

<sup>٦٢</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٤٧، بترقيم الشاملة آليا)

والذين باعوا هذه البيعة، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة، ذات صفات مميزة ..  
 منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في الشعور والشعائر ومنها ما  
 يختص بتكاليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في  
 الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي  
 سواهم: «التَّائِبُونَ، الْعَابِدُونَ، الْحَامِدُونَ، السَّائِحُونَ، الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ، الْأَمْرُونَ  
 بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ. وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ».

والآيات التالية في السياق تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه  
 الصفقة، وبين كل من لم يدخلوا معهم فيها - ولو كانوا أولى قربي - فقد اختلفت  
 الوجهتان، واختلف المصيران، فالذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة، والذين لم  
 يعقدوها هم أصحاب الجحيم. ولا لقاء في دنيا ولا في آخرة بين أصحاب الجنة  
 وأصحاب الجحيم. وقربى الدم والنسب إذن لا تنشئ رابطة، ولا تصلح وشيجة بين  
 أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ  
 - وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى - مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ  
 إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ  
 لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» ..

وولاء المؤمن يجب أن يتمحض لله الذي عقد معه تلك الصفقة وعلى أساس هذا الولاء  
 الموحد تقوم كل رابطة وكل وشيجة - وهذا بيان من الله للمؤمنين يحسم كل شبهة  
 ويعصم من كل ضلالة - وحسب المؤمنين ولاية الله لهم ونصرته فهم بها في غنى عن كل  
 ما عداه، وهو مالك الملك ولا قدرة لأحد سواه: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ  
 هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

ولما كانت هذه طبيعة تلك البيعة فقد كان التردد والتخلف عن الغزوة في سبيل الله أمرا  
 عظيما، تجاوز الله عنه لمن علم من نواياهم الصدق والعزم بعد التردد والتخلف فتاب  
 عليهم رحمة منه وفضلا: «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي

سَاعَةِ الْعُسْرَةِ، مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» ..

ومن ثم بيان محدد لتكاليف البيعة في أعناق أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أولئك القرييون من رسول الله - ﷺ - الذين يؤلفون القاعدة الإسلامية، ومركز الانطلاق الإسلامي واستنكار لما وقع منهم من تخلف مع بيان ثمن الصفقة في كل خطوة وكل حركة في تكاليف البيعة: «ما كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً، وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ..

ومع هذا التحضيض العميق على النفرة للجهاد بيان لحدود التكليف بالنفير العام. وقد اتسعت الرقعة وكثر العدد، وأصبح في الإمكان أن ينفر البعض ليقاتل ويتفقه في الدين ويبقى البعض للقيام بحاجات المجتمع كله من توفير للأزواد ومن عمارة للأرض، ثم تتلاقى الجهود في نهاية المطاف: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً. فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ، لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ!»<sup>٦٣</sup>

من بايع على هذا. من أمضى عقد الصفقة. من ارتضى الثمن ووفى. فهو المؤمن .. فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا .. ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنا، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال. ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريدا وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده وجعل وفاءه بما مقياس إنسانيته الكريمة ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم

<sup>٦٣</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٣٣٣)

البهيمة:.. شر البهيمة .. «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مِرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ» .. كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها في عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه.

ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» .. عونك اللهم! فإن العقد رهيب .. وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها، قاعدون، لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد. ولا يقتلون. ولا يقتلون. ولا يجاهدون جهادا ما دون القتل والقتال! ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين - على عهد رسول الله - ﷺ - فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم. كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها. لتحويلها إلى حركة منظورة، لا إلى صورة متألمة .. هكذا أدركها عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - في بيعة العقبة الثانية. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ وَغَيْرُهُ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - بَعْنِي لَيْلَةَ الْعَقْبَةِ - : اشْتَرِطُ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ! فَقَالَ: "اشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَكَأ تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ". قَالُوا: فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ: "الْجَنَّةُ". قَالُوا: رِبْحَ الْبَيْعِ، لَا نُقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ، فَتَزَلَّتْ: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} الْآيَةَ. ... الْآيَةُ ٦٤ ..

هكذا .. «ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل» .. لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين انتهى أمرها، وأمضي عقدها، ولم يعد إلى مرد من سبيل: «لا نقيل ولا نستقيل»

<sup>٦٤</sup> - تفسير ابن كثير - دار طيبة [٢١٨/ ٤] وتفسير الطبري - مؤسسة الرسالة [٤٩٩/ ١٤] (١٧٢٧٠)

ونحن نستبعد أن تكون الآية نزلت يومذاك. السيد رحمه الله

فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار والجنة: ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن.

وعدا قديما في كل كتبه: «وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» .. «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟». أجل! ومن أوفى بعهده من الله؟

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن .. كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله .. إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» .. «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا» ..

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه. ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق! .. بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق .. إن دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده. ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق .. بل لا بد أن يقطع عليه الطريق .. ولا بد لدين الله أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله. ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا! .. وما دام في «الأرض» كفر. وما دام في «الأرض» باطل. وما دامت في «الأرض» عبودية لغير الله تذلل كرامة «الإنسان» فالجهاد في سبيل الله ماض، والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء. وإلا فليس بالإيمان، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ - «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»<sup>٦٥</sup>.

فيومذاك لم يكن قد فرض قتال. وهذه آية مدنية قطعاً. ولكنها تنفق مع مضمون تلك البيعة العام.

«فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله، وأخذ الجنة عوضاً وثمناً، كما وعد الله .. وما الذي فات؟

<sup>٦٥</sup> - صحيح مسلم - المكثر [١٢/ ٤٦٣] (٥٠٤٠)

ما الذي فات المؤمن الذي يسلم لله نفسه وماله ويستعيز الجنة؟ والله ما فاتة شيء. فالنفس إلى موت، والمال إلى فوت. سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله أم في سبيل سواه! والجنة كسب. كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك! ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله. ينتصر - إذا انتصر - لإعلاء كلمته، وتقدير دينه، وتحرير عبادته من العبودية المذلة لسواه. ويستشهد - إذا استشهد - في سبيله، ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.

ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة - أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقله الأرض، والإيمان ينتصر فيه على الألم، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة. إن هذا وحده كسب. كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهام الضرورة وانتصار الإيمان فيه على الألم، وانتصار العقيدة فيه على الحياة.. فإذا أضيفت إلى ذلك كله.. الجنة.. فهو يبيع يدعو إلى الاستبشار وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال: «فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى في هذه الآية: «وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»..

فوعده الله للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور.. وهو لا يدع مجالاً للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيل الله في طبيعة هذا المنهج الرباني باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشري - لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه - ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي، يحمي نفسه بالقوة المادية ويقاوم دين الله وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة المادية كذلك ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية الله وحده للعباد، وتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد. كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته لله وحده دون العباد.. ومن ثم يتحتم على الإسلام في انطلاقه في «الأرض» لتحقيق إعلان العام بتحرير «الإنسان» أن يصطدم بالقوة المادية التي تحمي التجمعات الجاهلية والتي تحاول بدورها - في حتمية

لا فكاك منها - أن تسحق حركة البعث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري، لاستبقاء العباد في رق العبودية للعباد! فأما وعد الله للمجاهدين في التوراة والإنجيل. فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان ..

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما الله على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ولم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة .. وهو قليل .. أضيف إليه الكثير! ومع ذلك فما تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد، والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين، لنصر إلههم وديانته وعبادته! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم لله - سبحانه - وتصورهم للجهاد في سبيله.

فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد .. ولكننا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها - بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم! - وقبل ذلك بشهادة الله سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والله سبحانه يقول في كتابه المحفوظ: إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن .. فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعده لقائل مقال!

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن. كل مؤمن على الإطلاق. منذ كانت الرسل، ومنذ كان دين الله ..

ولكن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاع إلى القتال إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال: والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة:»

التَّائِبُونَ. الْعَابِدُونَ. الْحَامِدُونَ. السَّائِحُونَ. الرَّاكِعُونَ. السَّاجِدُونَ. الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ»

«التَّائِبُونَ» .. مما أسلفوا، العائدون إلى الله مستغفرين. والتوبة شعور بالندم على ما  
مضى، وتوجه إلى الله فيما بقي، وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما  
يحققها بالترك. فهي طهارة وزكاة وتوجه وصلاح.

«الْعَابِدُونَ» .. المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة والعبودية، إقرارا بالربوبية .. صفة هذه  
ثابتة في نفوسهم تترجمها الشعائر، كما يترجمها التوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل  
قول وبكل طاعة وبكل اتباع. فهي إقرار بالألوهية والربوبية لله في صورة عملية واقعية.  
«الْحَامِدُونَ» .. الذين تنطوي قلوبهم على الاعتراف للمنعم بالنعمة وتلهج ألسنتهم بحمد  
الله في السراء والضراء. في السراء للشكر على ظاهر النعمة، وفي الضراء للشعور بما في  
الابتلاء من الرحمة. وليس الحمد هو الحمد في السراء وحدها، ولكنه الحمد في الضراء  
حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليبتلي المؤمن إلا لخير يعلمه، مهما  
خفي على العباد إدراكه.

«السَّائِحُونَ» .. وتختلف الروايات فيهم. فمنها ما يقول: إنهم المهاجرون. ومنها ما  
يقول: إنهم المجاهدون. ومنها ما يقول: إنهم المتنقلون في طلب العلم. ومنهم من يقول: إنهم  
الصائمون .. ونحن نميل إلى اعتبارهم المتفكرين في خلق الله وسننه، ممن قيل في أمثالهم في  
موضع آخر: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَاختلاف الليل والنهار لآياتٍ لِأُولِي  
الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ: رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ! ...» .. فهذه الصفة أليق هنا بالجو بعد  
التوبة والعبادة والحمد. فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت الله على هذا  
النحو الذي ينتهي بالإنابة إلى الله، وإدراك حكمته في خلقه، وإدراك الحق الذي يقوم عليه  
الخلق. لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمل والاعتبار. ولكن لبناء الحياة  
وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك ..



«الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ»..الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم.

«الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ»..وحيث يقوم المجتمع المسلم الذي تحكمه شريعة الله، فيدين لله وحده ولا يدين لسواه، يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل هذا المجتمع ويتناول ما يقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج الله وشرعه..ولكن حين لا يكون في الأرض مجتمع مسلم وذلك حين لا يكون في الأرض مجتمع الحاكمية فيه لله وحده، وشريعة الله وحدها هي الحاكمة فيه، فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولاً إلى الأمر بالمعروف الأكبر، وهو تقرير ألوهية الله وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم. والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولاً إلى النهي عن المنكر الأكبر. وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة الله..والذين آمنوا بمحمد - ﷺ - هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة. فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي. ولم ينفقوا قط جهدهم، قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفرعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع. فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم! «وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ»..وهو القيام على حدود الله لتنفيذها في النفس وفي الناس. ومقاومة من يضيعها أو يعتدي عليها..ولكن هذه كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يقام عليها إلا في مجتمع مسلم.

ولا مجتمع مسلم إلا المجتمع الذي تحكمه شريعة الله وحدها في أمره كله وإلا الذي يفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية والتشريع ويرفض حكم الطاغوت المتمثل في كل شرع لم يأذن به الله..والجهد كله يجب أن ينفق ابتداء لإقامة هذا المجتمع. ومتى قام كان هناك مكان للحافظين لحدود الله فيه..كما وقع كذلك أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم!

هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد الله معها بيعته. وهذه هي صفاتها ومميزاتها: توبة ترد العبد إلى الله، وتكفه عن الذنب، وتدفعه إلى العمل الصالح. وعبادة تصله بالله وتجعل الله معبوده وغايته ووجهته. وحمد الله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة المطلقة برحمته وعدله. وسياحة في ملكوت الله مع آيات الله الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق. وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة. وحفظ لحدود الله يرد عنها العابدين والمضيعين، ويصونها من التهجم والانتهاك ..

هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها الله على الجنة، واشترى منها الأنفس والأموال، لتمضي مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسله ورسالاته. قتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وقتل لأعداء الله الذين يحادون الله أو استشهاد في المعركة التي لا تفتر بين الحق والباطل، وبين الإسلام والجاهلية، وبين الشريعة والطاغوت، وبين الهدى والضلال.

وليست الحياة لهوا ولعبا. وليست الحياة أكلا كما تأكل الأنعام ومتاعا. وليست الحياة سلامة ذليلة، وراحة بليدة ورضى بالسلم الرخيصة .. إنما الحياة هي هذه: كفاح في سبيل الحق، وجهاد في سبيل الخير، وانتصار لإعلاء كلمة الله، أو استشهاد كذلك في سبيل الله .. ثم الجنة والرضوان ..

هذه هي الحياة التي يدعى إليها المؤمنون بالله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» ... وصدق الله. وصدق رسول الله ﷺ ..

وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلِكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

٦٦ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٢٣٣٦)

وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) {الصف  
يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَالْمُصَدِّقُونَ بِرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ وَآيَاتِهِ، أَلَا تُرِيدُونَ أَنْ أَدْلِكُمْ عَلَى صَفْقَةٍ رَّابِحَةٍ، وَتِجَارَةٍ نَّافِعَةٍ، تَفُوزُونَ فِيهَا بِالرَّبْحِ الْعَظِيمِ، وَتُنْقَذُونَ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ الْأَلِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

وَهَذِهِ الصَّفْقَةُ هِيَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَتَصَدَّقُوا بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ، وَمَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَتُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ رَفْعِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَعِزَّةِ دِينِهِ، بِأَنْفُسِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، كَانَ ذَلِكَ خَيْرًا لَّكُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا: مِنَ النَّفْسِ وَالْمَالِ وَالزَّوْجِ وَالْوَلَدِ، هَذَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ جَزِيلِ الثَّوَابِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.  
وإِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ سَتَرَ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ وَمَحَاهَا، وَأَدْخَلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِهَا، وَأَسْكَنْكُمْ مَسَاكِينَ طَيِّبَةً تَقْرَأُ بِهَا الْعُيُونُ، وَهَذَا هُوَ مُنْتَهَى مَا تَصْبَوْنَ إِلَيْهِ النَّفُوسُ، وَهُوَ الْفَوْزُ الَّذِي لَا فَوْزَ أَعْظَمَ مِنْهُ.

وَلَكُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، مَعَ الْفَوْزِ فِي الْآخِرَةِ، الَّذِي وَعَدَكُمْ اللَّهُ بِهِ، نِعْمَةٌ أُخْرَى تُحِبُّونَهَا، وَهِيَ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ، وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، تَجْتَنُونَ مَعَانِمَهُ، وَبَشِّرِ يَا مُحَمَّدُ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا الْجَزَاءِ.<sup>٦٧</sup>

ومن ذا الذي لا يشتاك لأن يبدله الله على هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق. ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع: «تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» .. وهم مؤمنون بالله ورسوله. فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم! «وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ» .. وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة، يجيء في هذا الأسلوب، ويكرر هذا التكرار، ويساق في هذا السياق. فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا

<sup>٦٧</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٥٠٥١، بترقيم الشاملة آليا)

التكرار، وهذا التنويع، وهذه الموحيات، لنتهض بهذا التكليف الشاق، الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض ...

ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلهم عليها بالتحسين والتزيين: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» .. فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد .. ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه، ويقره في الحس ويمكن له: «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» .. وهذه وحدها تكفي.

فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء؟ أو يدخر في سبيلها شيئاً؟ ولكن فضل الله ليست له حدود: «وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ» .. وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة - حتى حين يفقد هذه الحياة كلها - ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم .. وحقا .. «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» ..

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الراجحة. وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة. فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق. فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض، ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا، فيكسب به خلوداً لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله، ومتاعاً غير مقطوع ولا ممنوع؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله - ﷺ - وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - ليلة العقبة. عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ، وَغَيْرِهِ، قَالُوا: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: " اشْتَرِطُ لِرَبِّكَ وَنَفْسِكَ مَا شِئْتَ قَالَ: «أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ» قَالُوا: فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَمَاذَا لَنَا؟ قَالَ: «الْجَنَّةُ» قَالُوا: رِيحَ الْبَيْعِ لَا نَقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ فَنَزَلَتْ: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١١١] . . الآية<sup>٦٨</sup>

وَعَنْ قَتَادَةَ، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} [الصف: ١٤] قَالَ: قَدْ كَانَتْ لِلَّهِ

<sup>٦٨</sup> - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٢ / ٧) حسن مرسل

أَنْصَارُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ تُجَاهِدُ عَلَى كِتَابِهِ وَحَقِّهِ. وَذَكَرَ لَنَا أَنَّهُ بَايَعَهُ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، ذَكَرَ لَنَا أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ عَلَامَ تُبَايَعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟ إِنَّكُمْ تُبَايَعُونَ عَلَى مُحَارَبَةِ الْعَرَبِ كُلِّهَا أَوْ يُسَلِّمُوا. وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ اشْتَرِطُ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ، قَالَ: «أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا مَنَعْتُمْ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ». قَالُوا: فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ، فَمَا لَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَكُمْ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا، وَالْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ». فَفَعَلُوا، فَفَعَلَ اللَّهُ<sup>٦٩</sup>

ولكن فضل الله عظيم. وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض، يناسب تركيبها البشري المحدود. وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض، وتحقيق منهجه وهيئته على الحياة في ذلك الجليل: «وأخرى تحبونها: نصر من الله وفتح قريب. وبشر المؤمنين» ..

وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله. الله الذي لا تنفذ خزائنه، والذي لا ممسك لرحمته. فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة. وفوقها .. فوق البيعة الراجحة والصفقة الكاسية النصر والفتح القريب .. فمن الذي يدلله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحمده؟! وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترغيب والتحييب .. إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ويعيش بقلبه في هذا التصور ويطلع على آفاقه وآماده ثم ينظر للحياة بغير إيمان، في حدودها الضيقة الصغيرة، وفي مستوياتها الهابطة الواطية، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة .. هذا القلب لا يطيق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان، ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الواسع الرفيع في عالم الواقع، ليعيش فيه، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك .. ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجرا خارجا عن ذاته. فهو ذاته أجر .. هذا الجهاد .. وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح. ثم إنه لا يطيق أن يعيش

<sup>٦٩</sup> - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (٢٢ / ٦٢٠) صحيح مرسل

في عالم بلا إيمان. ولا يطيق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان. فهو مدفوع دفعا إلى الجهاد. كائننا مصيره فيه ما يكون ..

ولكن الله - سبحانه - يعلم أن النفس تضعف، وأن الاندفاع يهبط، وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط .. ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد ويعالجها ذلك العلاج، ويهتف لها بالموحيات والمؤثرات ذلك اهتاف المتكرر المتنوع، في شتى المناسبات. ولا يكلها إلى مجرد الإيمان، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان. فيها هو ذا يختم السورة بنداء جديد، يحمل طابعا جديدا، وإغراء جديدا، وموحيا جديدا<sup>٧٠</sup>

٩- لن يهلك الله تعالى الكفار والفجار ونحن نيام ، وعندئذ فلا قيمة لوجودنا أصلا

قال تعالى : { هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } (٣٨) سورة محمد

بهذه الآية الكريمة تختم السورة، فلتلتقى بالمؤمنين، بعد أن وضعتهم في مواجهة أعدائهم من الكافرين والمشركين، الذين يحادون الله ورسوله، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر، وأنه مطلوب من المؤمنين أن يعملوا على حماية أنفسهم من هذا العدو المتربص بهم، وذلك بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم..

ولما كان للمال سلطانه على النفوس، فقد جاءت الآيات السابقة تكشف عن هذه المشاعر، التي يجدها المؤمنون حين يمتحنون في أموالهم، وأن الله سبحانه وتعالى قد شملهم برحمته، فلم يدعهم إلى الخروج عن أموالهم جملة، على سبيل الإلزام والفرض، بل جعل ذلك دعوة مطلقة، يأخذ منها الناس ما تتسع له نفوسهم، كل على حسب ما تسخو به نفسه، ويرضاه قلبه..

دون حرج أو إعنات.

<sup>٧٠</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٤٤٤٧)

وفي قوله تعالى: «ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» امتحان للمؤمنين، واستدعاء لما في نفوسهم من إيمان، في مقام البذل في سبيل الله.. وقوله تعالى: «فَمِنْكُمْ مَنْ يَخْلُ وَمَنْ يَخْلُ فَإِنَّمَا يَخْلُ عَنْ نَفْسِهِ» هو بيان لما كشف عنه هذا الامتحان من شح في بعض النفوس، وضمن بالبذل والإنفاق في سبيل الله.. وهذا البخل إنما هو عائد على من بخل، إذ حرم نفسه هذا الخير الكثير الذي كان ينتظره لو أنه أنفق من هذا المال الذي حبسه، وضمن به.. إنه هو المحروم، وهو الخاسر في هذا الموقف، حيث أثر ما يفنى على ما يبقى..

وفي تعدية الفعل «يخُل» بحرف الجر «عن» بدلا من الحرف «على» الذي يستدعيه ظاهر النظم - في هذا إشارة إلى أن هذا البخل هو حجز للخير عن النفس، التي كان من حقها على صاحبها أن يسوقه إليها من هذا المال الذي بخل به، وهو يظن أنه إنما فعل ذلك ابتغاء للخير وإسعادها..

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ الْعَنِي وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ» - هو تعقيب على موقف أولئك الذين بخلوا بالإنفاق في سبيل الله، ولم يستجيبوا الدعوة الله، الذي آتاهم من فضله، ووسّع لهم من رزقه - فالله - سبحانه - غنى عنهم، وهم الفقراء إليه..

ولو شاء سبحانه أن يعفيهم من هذا الامتحان، لفعل، ولحرمهم الثواب الذي ينالونه بما ينفقون من مال الله الذي بين أيديهم..

وقوله تعالى: «وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ».. هو تهديد ووعد لهؤلاء الباخلين بأموالهم عن الإنفاق منها في سبيل الله وأنهم إذا أصروا على موقفهم هذا، ولم ينفقوا في سبيل الله، كان في المؤمنين من يقوم مقامهم، ويسدّ هذا النقص الذي كان منهم.. ثم إن هؤلاء الذين يلبسون الإيمان ظاهرا وباطنا، لا يكون منهم تردد، أو نكوص عن تقبل البذل والإنفاق، كما كان من هؤلاء المترددين المنقلبين على أعقابهم، بل ستثبت أقدامهم على طريق الإيمان إلى النهاية..<sup>٧١</sup>

<sup>٧١</sup> - التفسير القرآني للقرآن (١٣ / ٣٨٩)

والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك. ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى البذل في كل بيئة. فهي تقرر أن منهم من يبخل. ومعنى هذا أن هنالك من لا يبخلون بشيء. وقد كان هذا واقعا، سجلته الروايات الكثيرة الصادقة، وسجله القرآن في مواضع أخرى. وقد حقق الإسلام في هذا المجال مثلا تحسب من خوارق الأمثال في البذل والتضحية عن رضى وعن فرح بالبذل والعطاء. ولكن هذا لم يمنع أن يكون هنالك من يبخل بالمال. ولعل الجود بالنفس أرخص عند بعضهم من الجود بالمال! والقرآن يعالج هذا الشح في هذه الآية: «وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ» ..

فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون. فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور. فإذا بخلوا بالبذل، فإنما يبخلون على أنفسهم وإنما يقللون من رصيدهم وإنما يستخسرون المال في ذواتهم وأشخاصهم وإنما يحرمونها بأيديهم! أجل. فالله لا يطلب إليهم البذل، إلا وهو يريد لهم الخير، ويريد لهم الوفرة، ويريد لهم الكثرة والذخر. وما يناله شيء مما يبذلون، وما هو في حاجة إلى ما ينفقون: «وَاللَّهُ الْعَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ» ..

فهو الذي أعطاكم أموالكم، وهو الذي يدخر لكم عنده ما تنفقونه منها. وهو الغني عما أعطاكم في الدنيا، الغني عن أرصدتكم المذخورة في الآخرة. وأنتم الفقراء في الدارين وفي الحالين. أنتم الفقراء إلى رزقه في الدنيا، فما لكم من قدرة على شيء من الرزق إلا أن يهبكم إياه. وأنتم الفقراء إلى أجره في الآخرة، فهو الذي يتفضل به عليكم، وما أنتم بموفين شيئا مما عليكم، فضلا على أن يفضل لكم شيء في الآخرة، إلا أن يتفضل عليكم. ففيم البخل إذن وفيم الشح؟ وكل ما في أيديكم، وكل ما ينالكم من أجر على ما تنفقون هو من عند الله، ومن فضل الله؟ ثم الكلمة الأخيرة وهي فصل الخطاب ..

إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومنّ وعطاء. فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلا لهذا الفضل، وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المكانة، وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهنون عليكم كل ما عداه .. فإن الله يسترد، ما وهب، ويختار غيركم لهذه المنّة ممن يقدر فضل الله: «وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» .. وإنما لندارة رهبة لمن



ذاق حلاوة الإيمان، وأحس بكرامته على الله، وبمقامه في هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهي العظيم. ويمشي في الأرض بسلطان الله في قلبه ونور الله في كيانه ويذهب ويجيء وعليه شارة مولاه .. وما يطيق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه، ويطرد من الكنف، وتوصد دونه الأبواب. لا بل إن الحياة لتغدو جحيما لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب.

إن الإيمان هبة ضخمة، لا يعد لها في هذا الوجود شيء والحياة رخيصة، والمال زهيد زهيد، حين يوضع الإيمان في كفة، ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه .. ومن ثم كان هذا الإنذار أهول ما يواجهه المؤمن، وهو يتلقاه من الله ..<sup>٧٢</sup>

-----

١٠ - لا بد أن نبذل كل ما في وسعنا ونكل النتائج على الله تعالى وأهم ذلك الجهاد في سبيل الله

وهو يشمل أنواع كثيرة وأهمها أمران هاما جدا :

الأول - الجهاد في أجل إعادة الخلافة الإسلامية التي تمثل قوة المسلمين ورمزهم وعزتهم

وهي فرض بلا نزاع وجميع المسلمين آثمون إن لم يفعلوا ذلك ، ولن تكون إلا بالدماء الرخصية التي تراق في سبيل الله كما فعل عماد الدين الزنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي عليهم شآبيب الرحمة ، فعندما احتل الصليبيون فلسطين والشريط الساحلي من الشام سارعت الدويلات العفنة لتبرم معهم اتفاقات كما نفعل اليوم ، وذلك ضمانا لبقائها على كراسيها، ولو ضاع الإسلام وأهله ، فلا يهمهم ذلك .

بل بقي هؤلاء ستين سنة يقاتلون الدويلات العميلة مع أعداء الإسلام الصليبيين ... حتى ووجدوا الشام ومصر حتى استطاعوا مقابلة الصليبيين ودحرهم في معركة حطين وما تلاها ...

<sup>٧٢</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤١١٨)

ولو كان التغيير يتم بالكلام فقط لسلمت قريش للنبي ﷺ الذي جاء يدعوها لسعادة الدارين ، وهي أعلم الناس بصدقه ، وكانت أشد الناس عداء لدعوة الإسلام وآخر الناس إسلاما ، وبالقوة أسلمت بعد عشرين سنة من معاداة الدعوة الإسلامية وحرها على كافة الأصعدة

وعندما عرض عليهم كلمة تخضع لهم بها العرب والعجم فماذا قالوا له ؟ وأبيك وعشرا واسمعوا القصة فعن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا: ويفعل ويفعل ويقول ويقول فلو بعثت إليه فنهيت؟ فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه، فجلس، عند الباب فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول. وتكلم رسول الله ﷺ فقال «يا عم إني أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية» ففرغوا لكلمته ولقوله، وقالوا كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرا فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟ فقال: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: أحعل الآلهة إلها واحدا! إن هذا لشيء عجائب قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: لما يدوقوا عذاب<sup>٧٣</sup>.

ولما ظفر بهم فماذا قالوا له ؟؟

لقد قال لهم ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه " أن رسول الله ﷺ ، حين سار إلى مكة ليستفتحها ، فسرح أبا عبيدة بن الجراح ، والزبير بن العوام وخالد بن الوليد رضي الله عنهم ، فلما بعثهم قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه اهتف بالأنصار

<sup>٧٣</sup> - تفسير ابن أبي حاتم - محققا (١٠/ ٣٢٣٥) (١٨٣٢٦) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (١٩/ ٢٠) والسنن الكبرى للنسائي (٨/ ٩٠) (٨٧١٦ و ١١٣٧٢) وسنن الترمذي ت شاكر (٥/ ٣٦٥) (٣٢٣٢) وصحيح ابن حبان - مخرجا (١٥/ ٧٩) (٦٦٨٦) ومسنند أحمد (عالم الكتب) (١/ ٩٠٤) (٣٤١٩) حسن قوله: "أرق له عليه"، قال السندي: أي خشي أن يكون قربه ﷺ من أبي طالب سببا لرقه أبي طالب.

فَنَادَى: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَجِيبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَجَاءُوا كَمَا كَانُوا عَلَى مُعْتَادٍ ، ثُمَّ قَالَ: اسْلُكُوا هَذَا الطَّرِيقَ وَلَا يُشْرِفَنَّ أَحَدٌ إِلَّا أَيَّ: فَتَلْتُمُوهُ ، وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ قَتْلِ يَوْمِئِذٍ الْأَرْبَعَةَ ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْكَعْبَةَ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ السَّيْفَ لَا يُرْفَعُ عَنْهُمْ ثُمَّ طَافَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ أَتَى الْكَعْبَةَ فَأَخَذَ بَعْضَادَتِي الْبَابَ فَقَالَ مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ؟ ، فَقَالُوا: نَقُولُ أَخٌ وَابْنُ عَمٍّ حَلِيمٌ رَحِيمٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ { لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } [يوسف: ٩٢] ، قَالَ: فَخَرَجُوا كَأَنَّمَا نُشِرُوا مِنَ الْقُبُورِ فَدَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْبَابِ الَّذِي يَلِي الصَّفَا فَخَطَبَ ، وَالْأَنْصَارُ أَسْفَلَ مِنْهُ ، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَمَا إِنَّ الرَّجُلَ أَخَذَتْهُ الرَّأْفَةُ بِقَوْمِهِ وَأَدْرَكَتْهُ الرَّغْبَةُ فِي قَرَابَتِهِ ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ الْوَحْيَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَفَلْتُمْ: أَخَذَتْهُ الرَّأْفَةُ بِقَوْمِهِ وَأَدْرَكَتْهُ الرَّغْبَةُ فِي قَرَابَتِهِ فَمَا نَبِيٌّ أَنَا إِذَا كَلَّا وَاللَّهُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا إِنَّ الْمَحْيَا لَمَحْيَاكُمْ وَإِنَّ الْمَمَاتَ لَمَمَاتُكُمْ ، قَالُوا: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا قُلْنَا إِلَّا مَخَافَةً أَنْ تُفَارِقَنَا إِلَّا ضِنًّا بِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتُنْتُمْ صَادِقُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا نَكَسَ نَحْرَهُ بِدُمُوعٍ عَيْنِيهِ «أَفَلَا يَرَى أَنَّ قُرَيْشًا بَعْدَ دُخُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ قَدْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ السَّيْفَ لَا يُرْفَعُ عَنْهُمْ أَفْتَرَاهُمْ كَانُوا يَخَافُونَ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَمَّتْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ؟ هَذَا وَاللَّهِ غَيْرُ مَخُوفٍ مِنْهُ ﷺ وَلَكِنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ إِلَيْهِ قَتْلُهُمْ إِنْ شَاءَ وَأَنَّ إِلَيْهِ الْمَنَّ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَظْهَرَ عَلَيْهِمْ وَصَيَّرَهُمْ فِي يَدِهِ يَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَعَفَا عَنْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ « لَا تُغْزَى مَكَّةَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ أَبَدًا »<sup>٧٤</sup>

فإذا كانت قريش لم تسلم للنبي ﷺ ( وهم أهله ) إلا بالقوة فهل سيسلم حكامنا السلطة لغيرهم بالكلام حفاظا على وحدة الأمة الإسلامية وقتها ؟؟؟!!

<sup>٧٤</sup> - شرح معاني الآثار (٣/ ٣٢٥) (٥٤٥٤) والسنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٩٩) (١٨٢٧٥) صحيح

ولما احتاح الصليبيون بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس وذبخوا جميع المسلمين حتى سار الدم إلى الركب سارع الحكام الخونة والعملاء الذين باعوا دينهم بثمن بخس إلى إبرام اتفاقات مع العدو الصليبي المحتل لضمان بقائهم على كراسيهم ولم يهتمهم ذبح جميع المسلمين في بيت المقدس ولا في غيرها المهم بقاء الكراسي والشهوات

ولما قامت الثورة الإسلامية الجهادية في الموصل بقيادة عماد الدين الزنكي ، فقد وقف هؤلاء الخونة بوجهه وقد حاربهم هو وولده نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي (( عليهم شآبيب الرحمة )) مدة ستين سنة حتى استطاعوا توحيد الشام ومصر ثم تكلل ذلك بمواجهة الصليبيين بعد ستين سنة وانتصار المسلمين عليهم وتحرير بيت المقدس ، والتاريخ يعيد نفسه فلم ينصرهم الله تعالى وهم نيام أو متفرجون على ما يجري أبدا ؛ وإنما نصروا وفق سنن الله الشرعية والكونية

وهذه الدويلات التي نراها اليوم هي أشبه بما كان عليه المسلمون قبيل الحروب الصليبية وأثناءها .

فكلها تتسابق لإبرام اتفاق معهم بل وتقدم لهم من الخدمات ما لم تقدمه في يوم من الأيام لشعوبها المسحوقة والمحكومة بالحديد والنار وذلك من أجل ضمان عروشها الخلبية ولتتم الأمة برمتها فليس ذلك مهم ، المهم بقاء الكراسي .

وهاهم اليوم يرون كيف يذبح المسلمون في كل مكان ولا سيما في فلسطين والعراق وفي سورية وفي بورما وغيرها من بلاد المسلمين فماذا فعلوا ؟؟

نعم لقد فعلوا الكثير الكثير ، ولكن من أجل حماية العدو ، فمنعوا كل مساعدة للانتفاضة ، وقدموا للعدو كل معونة وكل معلومة عن قادة الانتفاضة ليدبخوا واحدا تلو الآخر ، وتكفلوا بإسكات شعوبهم وتخديرهم ، بل واتهام كل من يطالب بفتح الحدود أو الجهاد في سبيل الله في العراق أو فلسطين أو غيرهما أو تقديم مساعدة لهم بالتطرف والإرهاب والعمالة ، وهاهي سجونهم مكتظة بالأخيار الأبرار .

وهم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ويتحاكمون إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، قال تعالى:

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) } [النساء: ٦٠ - ٦٥]

ولن يتخلوا عنها بالكلام والدغدغة أبدا؛ لأنهم لا يؤمنون بالخلافة الإسلامية أصلا ، ولا بوحدة الأمة الإسلامية التي قال الله تعالى عنها : {إِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} (٩٢) سورة الأنبياء

وقد نصبهم أعداء الإسلام علينا (( بالقوة )) ليقدموا مصالحهم ويسحقوا شعوبهم .

وقد بين النبي ﷺ حالهم

فعن الثَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ بَشِيرٌ رَجُلًا يَكْفُ حَدِيثَهُ، فَجَاءَ أَبُو ثَعْلَبَةَ، فَقَالَ: يَا بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ، أَتَحْفَظُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْأُمَرَاءِ؟ وَكَانَ حُذَيْفَةُ قَاعِدًا مَعَ بَشِيرٍ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَنَا أَخْفَظُ خُطْبَتَهُ، فَجَلَسَ أَبُو ثَعْلَبَةَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ فِي النَّبُوءَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونُوا، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النَّبُوءَةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونُوا، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ جَبَرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النَّبُوءَةِ»، ثُمَّ سَكَتَ<sup>٧٥</sup>

<sup>٧٥</sup> - مسند أبي داود الطيالسي (١/ ٣٤٩) (٤٣٩) صحيح

وكل من يظن أن التغيير يتم بغير طريق الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس والكلمة ماديا ومعنويا فهو يحلم على سطح كوكب آخر كما هو حال أكثر الحركات الإسلامية التي نشأت بعد سقوط الخلافة الإسلامية ، فقد أثبتت فشلها الذريع وسقوط أطروحاتها الخيالية ، بل وغدت بوقا لهذه الأنظمة المستبدة مقابل لعاعة من الدنيا ترميها لها .

**الثاني - مجاهدة أعداء الإسلام بكل ما أوتينا من قوة مادية ومعنوية حتى يكون الدين كله لله**

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِ الْكُفَّارِ حَتَّى لَا تَكُونَ لَهُمْ قُوَّةٌ يَفْتِنُونَ بِهَا الْمُسْلِمِينَ عَنْ دِينِهِمْ، وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ إِظْهَارِهِ، وَالِدَّعْوَةَ إِلَيْهِ، وَحَتَّى لَا يَكُونَ هُنَاكَ شِرْكٌ، وَحَتَّى تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَدِينُهُ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِي عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ. فَإِنْ انْتَهَى الْمُشْرِكُونَ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ، وَكَفُّوا عَنْ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا سَبِيلَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى قِتَالِهِمْ، لِأَنَّ الْقِتَالَ إِنَّمَا شُرِعَ لِرُدِّعِ الْكُفْرَ وَالظُّلْمَ وَالْفِتْنَةَ. وَالْعُدُوَّانُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي، وَتَجَاوَزَ الْعَدْلَ.<sup>٧٦</sup>

وقال تعالى : { قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } (٢٩) سورة التوبة

بَعْدَ أَنْ اسْتَقَامَتِ الْأُمُورُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، بِدُخُولِ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَذَلِكَ سَنَةَ تِسْعٍ لِلْهِجْرَةِ، لِذَلِكَ تَجَهَّزَ الرَّسُولُ ﷺ لِقِتَالِ الرُّومِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى ذَلِكَ، وَأَظْهَرَهُ لَهُمْ، وَنَدَبَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجِهَادِ، وَتَخَلَّفَ بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ الْعَامَ عَامَ جَدَبٍ، وَالْوَقْتُ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ، وَخَرَجَ الرَّسُولُ وَصَحْبُهُ إِلَى تَبُوكَ، فَنَزَلَ بِهَا، وَأَقَامَ فِيهَا قُرَابَةَ عِشْرِينَ يَوْمًا، ثُمَّ رَجَعَ لِضَيْقِ الْحَالِ، وَضَعْفِ النَّاسِ.

<sup>٧٦</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٢٠٠، بترقيم الشاملة آليا)

فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَرَضَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قِتَالَهُ، حَتَّى يُعْطِيَ  
الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدِ مَقْهُورَةٍ مَغْلُوبَةٍ، وَهُوَ خَاضِعٌ صَاحِرٌ.

وَيَجِبُ قِتَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا اجْتَمَعَتْ فِيهِمْ أَرْبَعُ صِفَاتٍ هِيَ الْعِلَّةُ فِي عِدَاوَتِهِمْ لِلْإِسْلَامِ  
وَالْمُسْلِمِينَ:

- أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، لِأَنَّهُمْ هَدَمُوا التَّوْحِيدَ فَاتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ مُشْرِعِينَ،  
وَمِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ الْمَسِيحَ وَعُزَيْرًا.

- أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، إِذْ يَقُولُونَ إِنَّ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ هِيَ حَيَاةٌ رُوحَانِيَّةٌ يَكُونُ  
فِيهَا النَّاسُ كَالْمَلَائِكَةِ

- أَنَّهُمْ لَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَلْتَزِمُونَ الْعَمَلَ بِمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ.

- أَنَّهُمْ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى أَنْبِيَائِهِ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ دِينًا وَضَعَهُ لَهُمْ  
أَحْبَارُهُمْ وَأَسَاقَفَتُهُمْ.<sup>٧٧</sup>

وقال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } (١٢٣) سورة التوبة

يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الطَّرِيقَ الْأَمْلَ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَبْدُؤُوا بِقِتَالِ الْأَقْرَبِ  
فَالْأَقْرَبِ مِنْهُمْ إِلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ، وَبِذَلِكَ لَا يَبْقَى مَحَالٌ لَأَنْ يُؤْخَذَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ  
مِنْ قَبْلِ أَعْدَائِهِمْ، إِذَا تَرَكُوا مَنْ هُمْ قُرْبَهُمْ وَذَهَبُوا لِيُقَاتِلُوا مَنْ خَلَفَ أَعْدَائِهِمْ، وَلِهَذَا بَدَأَ  
الرَّسُولُ ﷺ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي حَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَمَّا انْتَهَى مِنَ الْعَرَبِ شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ  
الْكِتَابِ فَتَجَهَّزَ لِعَزْوِ الرُّومِ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ. وَهَكَذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ كُلَّمَا عَلَوْا أُمَّةً  
انْتَقَلُوا إِلَى مَنْ هُمْ بَعْدَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْعَتَاةِ الْفُجَّارِ وَهَكَذَا.

وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَكُونُوا أَشَدَّاءَ فِي قِتَالِ الْكُفَّارِ، وَأَنْ يُظْهِرُوا لَهُمْ غِلْظَةً وَشِدَّةً  
وَخَشُونَةً فِي الْقِتَالِ، لِيُدْخِلُوا الْوَهْنَ إِلَى نُفُوسِهِمْ، وَنُفُوسٍ مَنْ خَلَفَهُمْ. وَمِنْ صِفَاتِ

<sup>٧٧</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٢٦٥)، بترقيم الشاملة آليا

الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا أَشَدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ، رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ. وَيُخْبِرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ مَعَهُمْ يُثَبِّتُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ إِذَا اتَّقَوْهُ وَأَطَاعُوهُ.<sup>٧٨</sup>

وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرِ } (٧٣) سورة التوبة

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يَبْذُلَ الْجَهْدَ فِي مُقَاوَمَةِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ يَعِيشُونَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمُسْلِمِينَ، مِثْلَمَا تَبَدَّلَهُ هَاتَانِ الطَّائِفَتَانِ فِي عِدَاوَةِ الرَّسُولِ وَالْمُسْلِمِينَ، كَمَا يَأْمُرُهُ بِمُعَامَلَتِهِمَا بِالشَّدَّةِ وَالْعَلَظَةِ لِتَرْتَدَّعَا، وَيَرْتَدَّعَ مَنْ خَلَفَهُمَا. وَمُجَاهَدَةُ الْكُفَّارِ تَكُونُ بِالسَّيْفِ، وَمُجَاهَدَةُ الْمُنَافِقِينَ تَكُونُ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ، وَسَيَكُونُ مَصِيرُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَيَخْلُدُونَ فِيهَا أَبَدًا، وَبِذَلِكَ يَجْتَمِعُ لَهُمْ حَزْنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.<sup>٧٩</sup>

جاهد الإسلام أولاً ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم. وقرر ذلك المبدأ العظيم الذي سلف تقريره في هذه السورة - في الجزء الثاني - «وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ» .. فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها، وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها. فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم. وإذا كان المؤمن مأذوناً في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله، فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه .. وقد كان المسلمون يسامون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون، ولم يكن لهم بد أن يدفعوا هذه الفتنة عن أعز ما يملكون. يسامون الفتنة عن عقيدتهم، ويؤذون فيها في مواطن من الأرض شتى. وقد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب الوحشي والتقتيل الجماعي لفتنة المسلمين عن دينهم، وفتنة أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى ليرتدوا إلى الكثلكة، ما ترك أسبانيا اليوم ولا ظل فيها للإسلام! ولا للمذاهب المسيحية الأخرى ذاتها! كما شهد بيت المقدس وما حوله بشاعة الهجمات الصليبية التي لم تكن موجهة إلا للعقيدة والإجهاز عليها والتي خاضها المسلمون في هذه المنطقة تحت لواء العقيدة وحدها فانتصروا فيها

<sup>٧٨</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٥٩، بترقيم الشاملة آلبا)

<sup>٧٩</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ١٣٠٩، بترقيم الشاملة آلبا)



وحملوا هذه البقعة من مصير الأندلس الأليم .. وما يزال المسلمون يسامون الفتنة في أرجاء المناطق الشيوعية والوثنية والصهيونية والمسيحية في أنحاء من الأرض شتى .. وما يزال الجهاد مفروضا عليهم لرد الفتنة إن كانوا حقا مسلمين! وجاهد الإسلام ثانيا لتقرير حرية الدعوة - بعد تقرير حرية العقيدة - فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة. جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها ويبلغه إلى أسمعها وإلى قلوبها. فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر. ولا إكراه في الدين. ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة كما جاء من عند الله للناس كافة. وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا. ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضا. فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاما عادلا يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعوة ..

وما يزال هذا الهدف قائما، وما يزال الجهاد مفروضا على المسلمين ليلغوه إن كانوا مسلمين!

وجاهد الإسلام ثالثا ليقم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه .. وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها. فليس هنالك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريق التشريع. إنما هنالك رب واحد للناس جميعا هو الذي يشرع لهم على السواء، وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع، كما يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء. فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذا لشريعة الله، موكلا عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ. حيث لا يملك أن يشرع هو ابتداء، لأن التشريع من شأن الألوهية وحدها، وهو مظهر الألوهية في حياة البشر، فلا يجوز أن يزاوله إنسان فيدعي لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد! هذه هي قاعدة النظام الرباني الذي جاء به الإسلام. وعلى هذه القاعدة يقوم

نظام أخلاقي نظيف تكفل فيه الحرية لكل إنسان، حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام، وتسان فيه حرمان كل أحد حتى الذين لا يعتنقون الإسلام، وتحفظ فيه حقوق كل مواطن في الوطن الإسلامي أيا كانت عقيدته. ولا يكره فيه أحد على اعتناق عقيدة الإسلام، ولا إكراه فيه على الدين إنما هو البلاغ.

جاهد الإسلام ليقم هذا النظام الرفيع في الأرض ويقرره ويحميه. وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الباغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر، والتي يدعي فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية - بغير حق - ولم يكن بد أن تقاومه تلك النظم الباغية في الأرض كلها وتناصبه العداء. ولم يكن بد كذلك أن يسحقها الإسلام سحقاً ليعلن نظامه الرفيع في الأرض .. ثم يدع الناس في ظله أحراراً في عقائدهم الخاصة. لا يلزمهم إلا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والدولية. أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار.

وأما أحوالهم الشخصية فهم فيها أحرار، يزاولونها وفق عقائدهم والإسلام يقوم عليهم يحميهم ويحمي حريتهم في العقيدة ويكفل لهم حقوقهم، ويصون لهم حرمانهم، في حدود ذلك النظام.

وما يزال هذا الجهاد لإقامة هذا النظام الرفيع مفروضاً على المسلمين: «حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ» .. فلا تكون هناك ألوهة للعبيد في الأرض، ولا دينونة لغير الله ..

لم يحمل الإسلام السيف إذن ليكره الناس على اعتناقه عقيدة ولم ينتشر بالسيف على هذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه! إنما جاهد ليقم نظاماً آمناً يأمّن في ظله أصحاب العقائد جميعاً، ويعيشون في إطاره خاضعين له وإن لم يعتنقوا عقيدته.

وكانت قوة الإسلام ضرورية لوجوده وانتشاره واطمئنان أهله على عقيدتهم، واطمئنان من يريدون اعتناقه على أنفسهم. وإقامة هذا النظام الصالح وحمانيته. ولم يكن الجهاد أداة قليلة الأهمية، ولا معدومة الضرورة في حاضره ومستقبله كما يريد أخصائمه أن

يوحوا للمسلمين! ..

لا بد للإسلام من نظام ولا بد للإسلام من قوة، ولا بد للإسلام من جهاد. فهذه طبيعته التي لا يقوم بدونها إسلام يعيش ويقود.

«لا إكراه في الدين» .. نعم ولكن: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ. وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» ..

وهذا هو قوام الأمر في نظر الإسلام .. وهكذا ينبغي أن يعرف المسلمون حقيقة دينهم، وحقيقة تاريخهم فلا يقفوا بدينهم موقف المتهم الذي يحاول الدفاع إنما يقفون به دائما موقف المظنن الواثق المستعلي على تصورات الأرض جميعا، وعلى نظم الأرض جميعا، وعلى مذاهب الأرض جميعا .. ولا ينخدعوا بمن يتظاهر بالدفاع عن دينهم بتجريده في حسهم من حقه في الجهاد لتأمين أهله والجهاد لكسر شوكة الباطل المعتدي والجهاد لتمتيع البشرية كلها بالخير الذي جاء به والذي لا يجني أحد على البشرية جناية من يجرمها منه، ويحول بينها وبينه. فهذا هو أعدى أعداء البشرية، الذي ينبغي أن تطارده البشرية لو رشدت وعقلت.

وإلى أن ترشد البشرية وتعقل، يجب أن يطارده المؤمنون، الذين اختارهم الله وحباهم بنعمة الإيمان، فذلك واجبه لأنفسهم ولل البشرية كلها، وهم مطالبون بهذا الواجب أمام الله ..<sup>٨٠</sup>

#### ١١- النصر من عند الله وليس من عند أحد سواه

لقد بين تعالى أن النصر من عنده وحده حتى لا يزهو المؤمنون حيث قال: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ يَقُولُ لِّلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُتَرَلِّينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ

<sup>٨٠</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب- ط ١ - ت- علي بن نايف الشحود (ص: ٥٤٣)

(١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ { (١٢٦) سورة آل عمران

لقد حرص القرآن الكريم على تقرير هذه القاعدة في التصور الإسلامي، وعلى تنقيتها من كل شائبة، وعلى تنحية الأسباب الظاهرة والوسائل والأدوات عن أن تكون هي الفاعلة .. لتبقى الصلة المباشرة بين العبد والرب. بين قلب المؤمن وقدر الله. بلا حواجز ولا عوائق ولا وسائل ولا وسائط. كما هي في عالم الحقيقة ..

وبمثل هذه التوجيهات المكررة في القرآن، المؤكدة بشتى أساليب التوكيد، استقرت هذه الحقيقة في أحوال المسلمين، على نحو بديع، هادئ، عميق، مستنير. عرفوا أن الله هو الفاعل - وحده - وعرفوا كذلك أنهم مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب، وبذل الجهد، والوفاء بالتكاليف .. فاستيقنوا الحقيقة، وأطاعوا الأمر، في توازن شعوري وحركي عجيب!

ولكن هذا إنما جاء مع الزمن، ومع الأحداث، ومع التربية بالأحداث، والتربية بالتعقيب على الأحداث .. كهذا التعقيب، ونظائره الكثيرة، في هذه السورة ..

وفي هذه الآيات يستحضر مشهد بدر والرسول - ﷺ - يدهم الملائكة مددا من عند الله إذا هم استمسكوا بالصبر والتقوى والثبات في المعركة - حين يطلع المشركون عليهم من وجههم هذا .. ثم يخبرهم بحقيقة المصدر الفاعل - من وراء نزول الملائكة - وهو الله. الذي تتعلق الأمور كلها بإرادته، ويتحقق النصر بفعله وإذنه.

{ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } { (١٢٦) سورة آل عمران  
«فهو العزيز» القوي ذو السلطان القادر على تحقيق النصر. وهو «الحكيم» الذي يجري قدره وفق حكمته. والذي يحقق هذا النصر ليحقق من ورائه حكمة ..

ثم يبين حكمة هذا النصر .. أي نصر .. وغاياته التي ليس لأحد من البشر منها شيء: «لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا. أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ - لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ - أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ» ..

إن النصر من عند الله. لتحقيق قدر الله. وليس للرسول - ﷺ - ولا للمجاهدين معه في النصر من غاية ذاتية ولا نصيب شخصي. كما أنه ليس له ولا لهم دخل في تحقيقه، وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء! فلا هم أسباب هذا النصر وصانعه ولا هم أصحاب هذا النصر ومستغلوه! إنما هو قدر الله يتحقق بحركة رجاله، وبالتأييد من عنده. لتحقيق حكمة الله من ورائه وقصده: «لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» .. فينقص من عددهم بالقتل، أو ينقص من أرضهم بالفتح، أو ينقص من سلطاتهم بالقهر، أو ينقص من أموالهم بالغنime، أو ينقص من فاعليتهم في الأرض بالهزيمة! «أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ» ..

أي يصرفهم مهزومين أذلاء، فيعودوا خائبين مقهورين. «أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» فإن انتصار المسلمين قد يكون للكافرين عظة وعبرة، وقد يقودهم إلى الإيمان والتسليم، فيتوب الله عليهم من كفرهم، ويختم لهم بالإسلام والهداية .. «أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ» .. يعذبهم بنصر المسلمين عليهم. أو بأسرهم. أو بموتهم على الكفر الذي ينتهي بهم إلى العذاب .. جزاء لهم على ظلمهم بالكفر، وظلمهم بفتنة المسلمين، وظلمهم بالفساد في الأرض، وظلمهم بمقاومة الصلاح الذي يمثله منهج الإسلام للحياة وشريعته ونظامه .. إلى آخر صنوف الظلم الكامنة في الكفر والصد عن سبيل الله.

وعلى أية حال فهي حكمة الله، وليس لبشر منها شيء .. حتى رسول الله - ﷺ - يخرج النص من مجال هذا الأمر، ليجرده لله وحده - سبحانه - فهو شأن الألوهية المتفردة بلا شريك.

بذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من هذا النصر: من أسبابه ومن نتائجه! وبذلك يطامنون من الكبر الذي يثيره النصر في نفوس المنتصرين، ومن البطر والعجب والزهو الذي تنتفخ به أرواحهم وأوداجهم! وبذلك يشعرون أن ليس لهم من الأمر شيء، إنما الأمر كله لله أولاً وأخيراً.

وبذلك يرد أمر الناس - طائعهم وعاصيهم - إلى الله. فهذا الشأن شأن الله وحده - سبحانه. شأن هذه الدعوة وشأن هؤلاء الناس معها: طائعهم وعاصيهم سواء .. وليس للنبي - ﷺ - وليس للمؤمنين معه إلا أن يؤدوا دورهم، ثم ينفضوا أيديهم من النتائج، وأجرهم من الله على الوفاء، وعلى الولاء، وعلى الأداء.

وملابسة أخرى في السياق اقتضت هذا التنصيص: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» فسيرد في السياق قول بعضهم: «هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟» .. وقولهم: «لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا.» .. ليقول لهم: إن أحدا ليس له من الأمر من شيء. لا في نصر ولا في هزيمة. إنما الطاعة والوفاء والأداء هي المطلوبة من الناس. وأما الأمر بعد ذلك فكله لله. ليس لأحد منه شيء. ولا حتى لرسول الله .. فهي الحقيقة الأصلية في التصور الإسلامي.

وإقرارها في النفوس أكبر من الأشخاص وأكبر من الأحداث، وأكبر من شتى الاعتبارات

٨١ ..

## ١٢- يجب أن تكون البيعة خالصة لوجه الله تعالى ليس إلا

عَنْ عَامِرٍ ، قَالَ : انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ إِلَى السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَقَالَ : لَيْتَكُمْ مُتَكَلِّمُكُمْ ، وَلَا يُطِيلُ الْخُطْبَةَ ، فَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَيْنًا ، وَإِنْ يَعْلَمُوا بِكُمْ يَفْضَحُوكُمْ . فَقَالَ قَائِلُهُمْ وَهُوَ أَبُو أُمَامَةَ : سَلْ يَا مُحَمَّدُ لِرَبِّكَ مَا شِئْتَ ، ثُمَّ سَلْ لِنَفْسِكَ وَلِأَصْحَابِكَ مَا شِئْتَ ، ثُمَّ أَخْبَرْنَا مَا لَنَا مِنَ الثَّوَابِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَيْكُمْ إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ؟ قَالَ : فَقَالَ : أَسْأَلُكُمْ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي وَلِأَصْحَابِي أَنْ تُؤْوُوا نَا وَتَنْصُرُونَا وَتَمْنَعُونَا مِمَّا مَنَعْتُمْ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ قَالُوا : فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ؟ قَالَ : لَكُمْ الْجَنَّةُ قَالُوا : فَلَكَ ذَلِكَ. ٨٢

٨١ - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٧٧٠)

٨٢ - مسند أحمد (عالم الكتب) (٥/ ٨٢٤) (١٧٠٧٨) ١٧٢٠٦ - صحيح مرسل

ونقف لحظة أمام هذا المشهد الذي يطيل القرآن عرض مناظره وحركاته - مشهد سخرية الذين أجزموا من الذين آمنوا في الدنيا - كما أطل من قبل في عرض مشهد نعيم الأبرار وعرض مناظره ومناعمه. فنجد أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال في الأداء التعبيري، كما أنه فن عال في العلاج الشعوري. فقد كانت القلة المسلمة في مكة تلاقي من عنت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق. وكان ربه لا يتركهم بلا عون، من تثبته وتسريته وتأسيته.

وهذا التصوير المفصل لمواجههم من أذى المشركين، فيه بلسم لقلوبهم. فربهم هو الذي يصف هذه المواجه. فهو يراها، وهو لا يهملها - وإن أمهل الكافرين حيناً - وهذا وحده يكفي قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه. إن الله يرى كيف يسخر منهم الساحرون. وكيف يؤذيهم الجرمون. وكيف يتفكه بآلامهم ومواجههم المتفكهون. وكيف لا يتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون! إن ربه يرى هذا كله. ويصفه في تزييله. فهو إذن شيء في ميزانه .. وهذا يكفي! نعم هذا يكفي حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة موحدة.

ثم إن ربه يسخر من المجرمين سخرية رفيعة عالية فيها تلميح موجه. قد لا تحسه قلوب المجرمين المطموسة المغطاة بالرين المطبق عليها من الذنوب. ولكن قلوب المؤمنين الحساسة المرهفة، تحسه وتقدره، وتستريح إليه وتستقيم!

ثم إن هذه القلوب المؤمنة تشهد حالها عند ربها، ونعيمها في جناته، وكرامتها في الملاء الأعلى. على حين تشهد حال أعدائها ومهانتهم في الملاء الأعلى وعذابهم في الجحيم، مع الإهانة والترذيل .. تشهد هذا وذلك في تفصيل وفي تطويل. وهي تستشعر حالها وتتذوقه تذوق الواقع اليقين. وما من شك أن هذا التذوق يمسح على مرارة ما هي فيه من أذى وسخرية وقلة وضعف. وقد يبلغ في بعض القلوب أن تتبدل هذه المرارة فيها بالفعل حلاوة، وهي تشهد هذه المشاهد في ذلك القول الكريم.

ومما يلاحظ أن هذا كان هو وحده التسلية الإلهية للمؤمنين المعذبين المألومين من وسائل المجرمين الخسيسة، وأذاهم البالغ، وسخريتهم اللثيمة .. الجنة للمؤمنين، والجحيم

للكافرين. وتبديل الحالين بين الدنيا والآخرة تمام التبديل .. وهذا كان وحده الذي وعد به النبي - ﷺ - المبايعين له. وهم يبذلون الأموال والنفوس! فأما النصر في الدنيا، والغلب في الأرض، فلم يكن أبدا في مكة يذكر في القرآن المكي في معرض التسرية والتثبيت ..

لقد كان القرآن ينشئ قلوبا يعدها لحمل الأمانة. وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض. ولا تنتظر إلا الآخرة. ولا ترجو إلا رضوان الله. قلوبا مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال، بلا جزاء في هذه الأرض قريب. ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين!

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل. وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للجزاء. وموعدا كذلك للفصل بين الحق والباطل .. حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، آتاها النصر في الأرض، واثمنها عليه. لا لنفسها. ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة، مذ كانت لم توعده بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه. وقد تجردت لله حقا يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه!

وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة. بعد ذلك. وبعد أن أصبح هذا الأمر خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه. وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية تقرر في صورة عملية محددة، تراها الأجيال. فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام. إنما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن!<sup>٨٣</sup>

<sup>٨٣</sup> - في ظلال القرآن للسيد قطب - ط ١ - ت - علي بن نايف الشحود (ص: ٤٧٩٠)



### ١٣- لا يعتمد على الأرقام والأحلام إلا الخاملون والكسالى

وأما من يعتمد على هذه الأرقام وغيرها من أحلام فهم الكسالى والخاملون الذين لا يريدون أن يبذلوا شيئاً، ويرغبون بكل شيء ولن يكون ذلك أبداً

قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) {سورة الأحزاب

يَحُثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالتَّاسِّي بِهِ فِي صَبْرِهِ وَمَصَابِرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ فَقَالَ لِلَّذِينَ أَظْهَرُوا الضَّجَرَ وَتَزَلُّوْا وَاضْطَرُّوْا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ، وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَمَائِلِهِ فَلَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ إِنْ كُنْتُمْ تَبْتَغُونَ ثَوَابَ اللَّهِ، وَتَخَافُونَ عِقَابَهُ، وَتَذْكُرُونَ اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، فَذِكْرُ اللَّهِ يُؤْدِي إِلَى أُسْوَةٍ حَسَنَةٍ

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ فِي إِيمَانِهِمُ الْأَحْزَابَ، يُحَدِّقُونَ بِالْمَدِينَةِ، قَالُوا: هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْاِبْتِلَاءِ وَالْاِخْتِبَارِ وَالْاِمْتِحَانِ بِالشَّدَائِدِ، الَّذِي يَعْقِبُهُ النَّصْرُ الْقَرِيبُ. وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي النَّصْرِ وَالثَّوَابِ، كَمَا صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِي الْاِبْتِلَاءِ وَالْاِخْتِبَارِ، وَمَا زَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَّا صَبْرًا غَلْضَى الْبَلَاءِ، وَتَصَدِّقًا بِتَحْقِيقِ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَسْلِيمًا لِلْقَضَاءِ.

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ نَقَضُوا الْعَهْدَ، وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ اسْتَمَرُّوا عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، وَأَنَّ مِنْهُمْ رِجَالًا أَوْفُوا بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبْرِ فِي الشَّدَّةِ وَالْبَأْسَاءِ، فَاسْتَشْهَدَ بَعْضُهُمْ فِي بَدْرِ، وَبَعْضُهُمْ اسْتَشْهَدَ فِي أُحُدٍ، وَبَعْضُهُمْ لَقِيَ وَجْهَ رَبِّهِ فِي غَيْرِ هَذَيْنِ الْمَوْقِعَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَضَى عَلَى الْوَفَاءِ لِلَّهِ بِالْعَهْدِ، وَمَا غَيَّرُوا وَمَا بَدَّلُوا.

وَاللَّهُ تَعَالَى يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْخَوْفِ وَالزَّلْزَلَةِ لِيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَيُظْهِرَ أَمْرَ كُلِّ مِنْهُمَا حَلِيًّا وَاضِحًا، فَيَجْزِي أَهْلَ الصَّدَقِ بِصِدْقِهِمْ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ النَّاقِضِينَ لِلْعَهْدِ، الْمُخَالِفِينَ لِأَوَامِرِ رَبِّهِمْ، إِذَا اسْتَمَرُّوا عَلَى نِفَاقِهِمْ، حَتَّى يَلْقَوْهُ، أَمَّا إِذَا تَابُوا وَعَمِلُوا صَالِحًا فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُمْ مَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنْ سَيِّئَاتٍ وَآثَامٍ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَرَحْمَتُهُ لِعِبَادِهِ هِيَ الْعَالِيَةُ لِعَظَمِهِ.<sup>٨٤</sup>

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ غَبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَعَنَ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيْنَ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ»، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعْتُ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي أَصْحَابَهُ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعْتُ هَؤُلَاءِ، - يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ - ثُمَّ تَقَدَّمْتُ»، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: «يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، الْجَنَّةُ وَرَبُّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ»، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعْتُ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمِيَةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَقَدْ مَثَلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَخْتَهُ بِنَاتِهِ قَالَ أَنَسٌ: "كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ {الْأَحْزَابُ: ٢٣} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ"<sup>٨٥</sup>

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الدَّلَّةُ، وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ.<sup>٨٦</sup>

<sup>٨٤</sup> - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: ٣٤٣٥، بترقيم الشاملة آليا)

<sup>٨٥</sup> - صحيح البخاري (١٩ / ٤) (٢٨٠٥)

[ش (انكشف المسلمون) اهزموا. (الجنة) أريد الجنة وهي مطلوب. (أحد) أشم. (من دون أحد) عند أحد ويحتمل أنه وجد ريحها حقيقة كرامة له ويحتمل أنه أراد أن الجنة تكتسب في هذا الموضع فاشتاق لها. (بضعا) من الثلاث إلى تسع. (بناته) أصابعه أو أطراف أصابعه]

<sup>٨٦</sup> - مسند أحمد (عالم الكتب) (٢ / ٣٣٩) (٥١١٤) حسن

## ١٤- الرسول ﷺ لم يعتمد على ما وعده الله تعالى بالنصر على الأعداء بل أخذ بأسباب المشروعة كلها لتحقيقه

نعم ، حتى رسول الله ﷺ فقد وعده الله تعالى بالنصر على الأعداء ويرى مصارعهم في  
بدر ومع ذلك لم يعتمد على ما وعده الله فقط

فعن ابن عباس، قال: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، حَ وَحَدَّثَنَا زُهَيْرُ  
بْنُ حَرْبٍ، وَاللَّفْظُ لَهُ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُوسُفَ الْحَنْفِيُّ، حَدَّثَنَا عِكْرَمَةُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنِي  
أَبُو زُمَيْلٍ هُوَ سِمَاكُ الْحَنْفِيُّ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ،  
قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ  
مِائَةٍ وَتِسْعَةِ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ:  
«اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ  
أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبِدْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ، مَا دَامَ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى  
سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكَبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكَبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِنْ  
وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ  
عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ}  
[الأنفال: ٩] فَأَمَدَهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ  
مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ  
فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمَ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ  
إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ حُطِمَ أَنْفُهُ، وَشَقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ [ص: ١٣٨٥] فَاخْضَرَ ذَلِكَ  
أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ  
السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ»، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسْرُوا سَبْعِينَ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا  
أَسْرُوا الْأَسَارَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى؟»  
فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونَ لَنَا  
قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ  
الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ

ثُمَّ كُنَّا فَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتَمَكَّنَ عَلَيَّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ، وَتَمَكَّنِي مِنْ فُلَانٍ نَسِيًّا لِعُمَرَ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَثَمَةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءَ بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخَذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ - شَجَرَةِ قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ - وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ} [الأنفال: ٦٧] إِلَى قَوْلِهِ {فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا} [الأنفال: ٦٩] فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ<sup>٨٧</sup>

وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَعْدِرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا

<sup>٨٧</sup> - صحيح مسلم (١٣٨٣/٣) - ٥٨ (١٧٦٣)

[ش (لما كان يوم بدر) اعلم أن بدر هو موضع الغزوة العظمى المشهورة وهو ماء معروف وقرية عامرة على نحو أربع مراحل من المدينة بينها وبين مكة قال ابن قتيبة بدر بئر كانت لرجل يسمى بدرًا فسميت باسمه وكانت غزوة بدر يوم الجمعة لسبع عشرة حلت من رمضان في السنة الثانية للهجرة (فجعل يهتف بربه) معناه يصيح وستغيث بالله في الدعاء (أن تهلك) ضبطوا تهلك بفتح الهاء وضمها فعلى الأول ترفع العصاة لأنها فاعل وعلى الثاني تنصب وتكون مفعوله (العصاة) الجماعة (كذلك مناشدتك ربك) المناشدة السؤال مأخوذة من الشيد وهو رفع الصوت هكذا وقع لجماهير رواة مسلم كذلك ول بعضهم كفاك وكل بمعنى (مناشدتك) ضبطوها بالرفع والنصب وهو الأشهر قال القاضي من رفعه جعله فاعلاً بكفاك ومن نصبه فعلى المفعول بما في كفاك وكذلك من معنى الفعل (ممدكم) أي معينكم من الإمداد (مردفين) متتابعين (أقدم حيزوم) ضبطوه بوجهين أحدهما وأشهرهما لم يذكر ابن دريد وكثيرون أو الأكثرون غيره أنه بهمزة قطع مفتوحة وبكسر الدال من الإقدام قالوا وهي كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم والثاني بضم الدال وبهمزة وصل مضمومة من التقدم وحيزوم اسم فرس الملك وهو منادى بحذف حرف النداء أي يا حيزوم (فإذا هو قد خطم أنفه) الخطم الأثر على الأنف (وصناديدها) يعني أشرافها الواحد صنديد والضمير في صناديدها يعود على أئمة الكفر أو مكة (فهوى) أي أحب ذلك واستحسنه يقال هوى الشيء يهوى هوى والهوى المحبة (ولم يهو ما قلت) هكذا هو في بعض النسخ ولم يهو وفي كثير منها ولم يهوى بالياء وهي لغة قليلة بإثبات الياء مع الجازم ومنه قراءة من قرأ إنه من يتقى ويصبر بالياء ومنه قول الشاعر: ألم يأتيك والأنباء تنمي (حتى يثخن في الأرض) أي يكثر القتل والقهر في العدو]

تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ حِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْعَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلِّهِمُ الْجَزِيَّةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَأَقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخَفِّرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخَفِّرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»<sup>٨٨</sup>

نسأل الله تعالى أن يردنا وإياكم إلى الحق وأن يجعلنا من المجاهدين في سبيله على كل الأصعدة . آمين

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا

<sup>٨٨</sup> - صحيح مسلم (٣/١٣٥٧) - (١٧٣١)

[ ش (سرية) هي قطعة من الجيش تخرج منه تغير وتعود إليه قال إبراهيم الحربي هي الخيل تبلغ أربعمئة ونحوها قالوا سميت سرية لأنها تسري في الليل ويخفي ذهابها وهي فعيلة بمعنى فاعلة يقال سرى وأسرى إذا ذهب ليلا (في خاصته) أي في حق نفس ذلك الأمير خصوصا (ولا تغلوا) من الغلول ومعناه الخيانة في الغنم أي لا تخونوا في الغنيمه (ولا تغدروا) أي ولا تنقضوا العهد (ولا تمثلوا) أي لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والأذان (وليدا) أي صبيلا لأنه لا يقاتل (ثم ادعهم إلى الإسلام) هكذا هو في جميع نسخ صحيح مسلم ثم ادعهم قال القاضي عياض رضي الله عنه صواب الرواية ادعهم بإسقاط ثم وقد جاء بإسقاطها على الصواب في كتاب أبي عبيد وفي سنن أبي داود وغيرهما لأنه تفسير للخصال الثلاث وليست غيرها وقال المازري ليست ثم هنا زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام والأخذ (ذمة الله) الذمة هنا العهد (أن تخفروا) يقال أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وخفرتة أمنتته وحميته ]

عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِمْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ  
مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) { [الحج: ٧٧، ٧٨]

— ١٤٢٤ هـ

وتمت مراجعتها وتنقيحها والزيادة فيها بتاريخ يوم الأربعاء

٢٧ رمضان ١٤٣٣ هـ الموافق ل ١٥/٨/٢٠١٢ م



## الفهرس العام

- ١- علم الحروف باطل شرعاً..... ٣
- ٢- جمعي لجل أحاديث علامات الساعة..... ٣
- اشتباه الصحابة حول الدجال : ..... ٣
- ٣- أسباب هلاك الأمم : ..... ٤
- ٤- قد وعدنا الله تعالى بإهلاك الجرمين والمفسدين والمنحرفين عن منهجه ووعدده الحق ..... ٧
- ٥- وعد الله تعالى أمة ﷺ بالنصر المؤزر على عدوهم ووعدده الحق ..... ١٧
- بعض الأحاديث النبوية حول انتصار المسلمين على أعدائهم..... ٢٥
- ٦- الفروق الكبيرة بين الأمة الإسلامية والأمم السابقة: ..... ٢٦
- وجوب الأخذ بالأسباب الشرعية والكونية لتحقيق النصر..... ٣٢
- ٧- وجوب الأخذ بأسباب النصر والابتعاد عن أسباب الهزيمة..... ٣٤
- ٨- من أهم أسباب النصر الشهادة في سبيل الله ومن أهم أسباب الهزيمة حب الدنيا وكراهية الموت..... ٥٣
- ٩- ..... لن يهلك الله تعالى الكفار والفجار ونحن نيام ، وعندئذ فلا قيمة لوجودنا أصلاً ..... ٧٧
- ١٠- لا بد أن نبذل كل ما في وسعنا ونكل النتائج على الله تعالى وأهم ذلك الجهاد في سبيل الله ..... ٨٠
- الأول- الجهاد في أجل إعادة الخلافة الإسلامية التي تمثل قوة المسلمين ورمزهم وعزهم.... ٨٠
- الثاني - مجاهدة أعداء الإسلام بكل ما أوتينا من قوة مادية ومعنوية حتى يكون الدين كله لله ..... ٨٥
- ١١- النصر من عند الله وليس من عند أحد سواه ..... ٩٠
- ١٢- يجب أن تكون البيعة خالصة لوجه الله تعالى ليس إلا ..... ٩٣
- ١٣- لا يعتمد على الأرقام والأحلام إلا الخاملون والكسالى..... ٩٦
- ١٤- الرسول ﷺ لم يعتمد على ما وعدده الله تعالى بالنصر على الأعداء بل أخذ بالأسباب المشروعة كلها لتحقيقه..... ٩٨